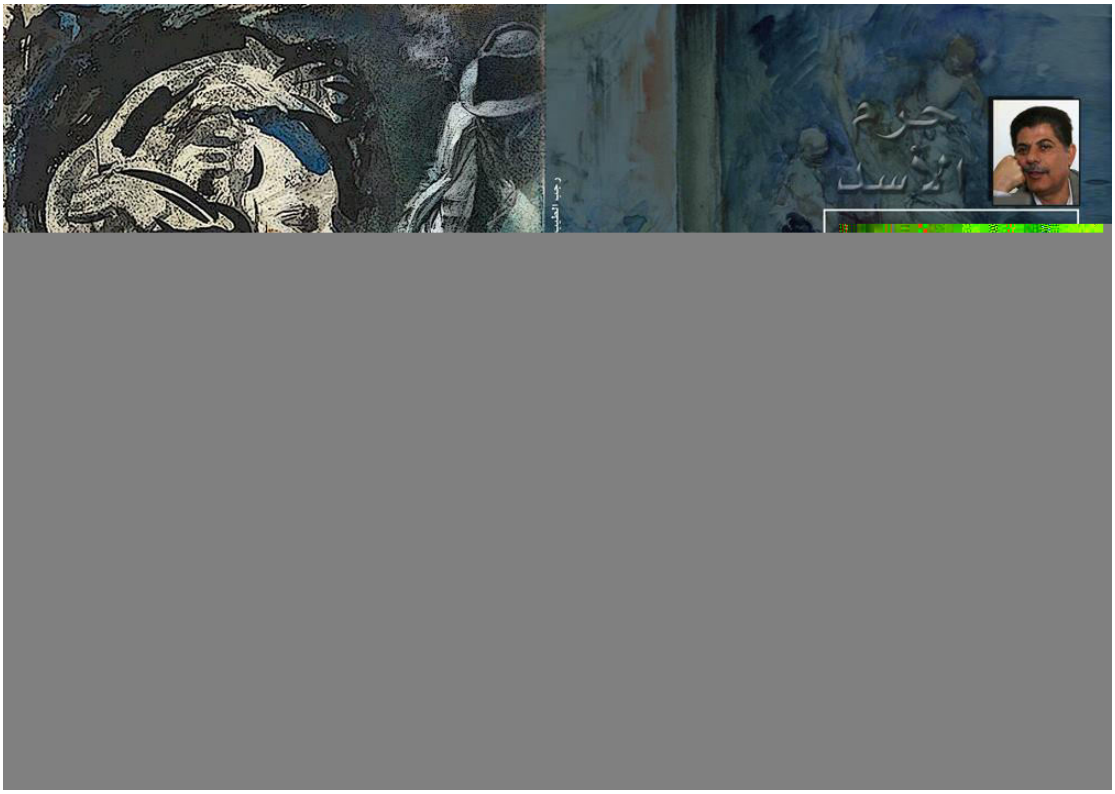

حرم الأسد

"رواية"

رجب الطيب

إهداء خاص:

إلى التي عاشت معي أكثر من نصف عدد السنين التي عشتها حتى الآن في حياتي, واحتملتها بحلوها ومرها, واحتملتني بمزاجي وعبثي وانفعالاتي, أهديها أنضج كتاباتي.

إلى شعبان يوسف وراسم المدهون, صديقين مرّا في حياتي, ولم يغادراها, وأضافا لي الكثير .

تقديم واجب وليس بحكم العادة أو التقليد :

حدثت هذه الواقعة معي قبل نحو ربع قرن من الآن, سردتها خلال تلك الفترة مرات لا تحصى لأصدقائي, وكنت كل مرة أتحسس ردود فعلهم, في رغبة مني لفحص صلاحيتها في أن تكون موضوعا لقصة أو رواية, واعترف الآن بأني حاولت عدة مرات أن اشرع في كتابتها, لكني كنت أتوقف بعد أن اكتب عددا من الصفحات, فيسكنني الحزن والإحباط , والشعور بالعجز . وحتى اللحظة لا اعرف السبب بالضبط, إن كان ضعفا في قدرتي على الكتابة, خاصة وان مشروعيتها تفترض في أن أتقدم بنص جديد/متجدد, فيه ما يغري الناس على صرف وقتها من اجل قراءته, أو إن كان في تقدم قناعتي مع الوقت بأن الوقت ما عاد وقت النص المقروء, بعد أن تحول شيئا فشيئا إلى زمن المرئي والمسموع . حتى أنني لم أقتنع كثيرا بمحاولة بعض زملائي وأصدقائي الاحتيال على أفول عصرهم, بالتنظير إلى الرواية الرقمية, وإن كنت واحدا ممن كتبوا حول المستحدث التقني, وتحولات العولمة, لدرجة كتابة مجموعة قصصية رقمية "كليكات مشاغبة _ موبايل – نت" . أو أن السبب كان جبنا إبداعيا, أو صراحة ما عدت معها أحتمل أن أتابع طريق الروائيين الذين يعتمدون التورية, أو الكتابة عن وهم, بل وحتى شخوص ذهنية مجردة, حتى لو كان الحديث يدور عن ضرورات تقنية, لها علاقة بالنمذجة, وفعلا بكون الشخصيات الروائية مدلولات دالة في الوقت ذاته, وليست مجرد شخوص عابرة . المهم في الأمر هو أني ومنذ عشرين عاما وأنا أفكر في الكيفية التي أخرج فيها هذه الواقعة إلى نص .

وكل مرة كنت أفكر فيها أن أشير إلى الرئيس حافظ الأسد باسم ما, أو أن اختصر صفته إلى ما هو أقل بالمكانة أو المهابة أو المرتبة, كنت أشعر بأني أهبط بمستوى ما حدث معي أنا من انفعال عاطفي حين حدثت معي تلك القصة, فكيف سيكون الحال بعد أن أنقلها للآخرين, في الوقت ذاته كنت أتذكر ما رواه لي صديقي الشاعر راسم يوما, حين كان يقيم في قبرص, وصادف أنه كان يقود سيارته في العاصمة نيقوسية, برفقة عائلته, وحين أضطر للوقوف عند الإشارة الضوئية, انتبه ابنه الصغير إلى أن الرئيس القبرصي سبيروس كبريانو, إنما هو من يقود سيارته بنفسه ويقف أمام الإشارة ذاتها ينتظر أن تتحول إلى اللون الأخضر, حين ذاك سأله, أليس هذا هو الرئيس كبريانو يا أبي مستغربا بالطبع . فما كان من راسم إلا أن أكد له بنعم انه هو, ثم وجد لزاما عليه أن يوضح للصغير بالقول, لكن هذا هو الوضع الطبيعي يا بني, وليس ما يحدث عندنا, لا نراهم إلا من خلال الأحاديث المتواترة أو عبر التلفزيونات, ولا نسمع عنهم إلا ما يقال عبر وسائل الإعلام, وما إلى ذلك .

ثم سألت نفسي سؤالا, لم يقتصر الأمر على المستوى الرسمي فقط ليسرد بعد أن يمر الوقت كل ما ارتبط بهؤلاء البشر من قصص وحكايا, يحق لمحمد حسنين هيكل مثلا أن يتحدث عن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر, ولا يحق لفلاح مصري بسيط أن يروي حادثة ما, أو أن يكتب أو يسرد ما كان يشعر به حيال رئيس دولة أو ضابط أمن كبير ؟

لذا فقد قررت أن أسرد حادثة كنت شاهدا عليها, قد لا تكون في غاية الأهمية, لولا أنها حدثت معي, وأنا ممن يكتبون القصة والرواية, كما جرت دون تأويل أو تزويق أو تنميط . ثم أن أحاول تفسير ما كان وراء الحادثة, وهو تفسير فيه كل التأويل وفيه كل ما هو متخيل, أي ما يحتمل القليل من الصواب والكثير من مجافاة الحقيقة والواقع, وهكذا فقط يمكن لي أن أقدم نصا, أوضح فيه ما هو لي وما هو للآخرين, في الوقت الذي لا أخفي فيه رغبتي في القول بأن حياتنا إنما هي خليط مما هو واقعي ومما هو متخيل, من الوقائع والأوهام, من رغبات متحققة ومن أفعال نتحكم فيها ومن مكبوتات دفينة وأفعال مفروضة علينا, وسنبقى هكذا إلى حين أن نبدأ في تحرير أنفسنا من الوهم ومن الجنون, حين يعرف كل منا واجبه تجاه نفسه والآخرين ومن ثم حقه وحقوق الآخرين, وتكون العلاقات بيننا قائمة على أساس من الاحترام والحب, دون نوازع الخوف والرهبة, ممن يملكون أسباب السلطة ومقاليد الحكم والنفوذ .

الواقعة

بعد سنوات من الانقطاع فاجأني رفيق شبابي وزميل دراستي الجامعية, شعبان, بتلغراف يخبرني فيه بأنه ينوي زيارتي في دمشق, حيث كنت أقيم وأعمل وحيث كنت لا أعرف إلى متى سيطول بي المقام في عاصمة العرب, وقلب العروبة النابض, كما اعتدنا أن نقول نحن والكثير من أمثالنا, وللحقيقة ولأسباب عديدة أولها تقدم الحياة العامة في دمشق الفيحاء على ما يمكن للنخبة المفترضة من أمثالي أن تحتمله من سلوك حياة, لدرجة أني وزوجتي وحتى بعد تلك الأيام بسنين, مازلنا نقر بأن أحلى الأيام التي عشناها أنما كانت تلك التي قضيناها في الشام رغم شح ذات اليد ورغم أننا ما كنا متأكدين من غدنا, ورغم أننا أيضا كنا نعيش في غربة, حيث لا أهل ولا أقارب, لكن ما لمسناه من كل أهل مخيم اليرموك حيث أقمنا, كان يوحي بأنهم جميعا أهلنا الذين يحبوننا والذين احتضنونا كما أهلنا بالضبط . كذلك عشنا حياة خاصة/عامة في تنظيماتنا كأسرة واحدة في حالة من التضامن والتكافل التي ما لمسنا مثيلا لها من قبل ولا من بعد .

تزيد زيارة شعبان إذا أيام الشام حلاوة, وتشعرني بسعادة خاصة فها هو أعز صديق عرفته في حياتي, وبعد أكثر من عشر سنين على آخر لقاء لنا معا في قاهرة المعز, لم ينسني, بل يقوم بجمع أمتعته لزيارتي, وما هي إلا أيام حتى كنت برفقة زوجتي نستقل حافلة عامة تتجه من ميدان الحجاز إلى المطار .

كنت سارحا مبتهجا ومحلقا في اللحظات القادمة حين سألتقي صديقي الأعز, حتى قطعت علي زوجتي وحدتي سائلة إياي سؤالا لا يخلو من وجاهة, من حيث أنه غاب عن تفكيري قبل ذلك تماما .

_ هل أنت واثق من انك ستتعرف إلى الرجل, وأنت الذي لم تره منذ أكثر من عشر سنين ؟

فاجأني السؤال, لكنني ورغم ذلك لم أسمح للشك بأن يمر بخاطري .

_ ربما يكون قد تغير شكله قليلا, وربما أنني لم أره منذ سنين, لكني سأعرفه, لقد كانت "عشرة" أربع سنوات قضيتها في الجامعة وكان رفيقي خلالها, بحيث لم ننقطع عن بعضنا يوما واحدا, أكلنا وشربنا وقطعنا الشوارع والأروقة والأزقة معا .

على أي حال, لحظات وسأكون في مواجهة الاختبار, وما علي إلا أن أنتظر وصول الطائرة في صالة المستقبلين, وقد كان .

خرج علي برأسه الصلعاء أكثر امتلاء, وأكثر نضجا وخبرة, لقد عرفته, هاهاها, واحتضنته كما لو كنت غير مصدق أو كما لو أنني كنت أحلم .

هيا بنا يا صديقي نستقل الحافلة التي ستعود بنا إلى البيت حيث ستكون ضيفي .

كان بدوره سعيدا للغاية لسببين: الأول أنه رآني بعد كل هذه السنين, والثاني لأنه في دمشق حيث اختار أن يكون في الوقت الدال, بعد أن اتجه معظم أصدقائه وزملائه صوب وجهة أخرى بعد حرب الخليج الثانية, أومأ لي أن انتظر قليلا .

_ ماذا هناك يا صديقي ؟

هناك سيدة جاءت برفقتي ولم تخرج من ممر المغادرين بعد, وعلي أن أنتظرها فهي رافقتني من القاهرة .

احترمت رغبته وجلسنا على مقعد عام ننتظر خروج السيدة الذي لم يتأخر كثيرا على أي حال .

للوهلة الأولى اعتقدت أني أمام أميرة شرقية خرجت لتوها من بين دفات الحكايا, أو من بين أوراق ألف ليلة وليلة, أو أني قد رأيت سيدة ارستقراطية جاءت من العصور الوسطى الفرنسية, بشعرها الأشقر وقبعتها المصنوعة من القش, الفاخرة والأنيقة التي تزيدها بهاء وأنفة, كانت سيدة ناضجة, أربعينية مكتملة الأنوثة والجمال, انضممنا إليها جميعنا, ومن ثم حملنا الأمتعة وتوجهنا إلى الحافلة .

جلست وبجواري شعبان في مقعد قريب من مقعد السائق في مقدمة الحافلة, فيما جلست السيدة إلى جوار زوجتي في المقعد الذي خلف مقعدنا, وهكذا كانت الفرصة للحديث بين كل اثنين, في رفقة الطريق الزراعي الجميل حيث أشجار غوطة دمشق الوارفة, التي تأخذ بلباب زائر الشهباء لأول مرة .

وصلنا بيتنا برفقة ضيفينا وكان الوقت قد تجاوز الظهر, حيث تناولنا طعام الغداء, واسترحنا قليلا حتى كان وقت العصر, حينها طلب مني صديقي أن أذهب به إلى مكتب البريد حتى يتصل بزوجته ويطمئنها على وصوله سالما, طلبت السيدة مرافقتنا, ولم يكن هناك أي سبب يحول دون أن نوافق, وقد كان .

خرجنا ثلاثتنا من مخيم اليرموك إلى ميدان الحجاز حيث مكتب البريد المركزي, حجز شعبان مكالمة للقاهرة, وانتظرنا إلى أن جاءه الاتصال فدخل وحده إلى الكابينة فيما كانت المرة الأولى التي أبقى فيها وحدي مع السيدة .

سألتني سؤالا مباغتا .

_ أين أجد القصر الجمهوري ؟

إنه هناك في حي المهاجرين

أجبت بكل بساطة

ثم سألتها عن السبب

أجابت بأن لها أقارب أو أصدقاء هناك وترغب في أن تذهب إليهم .

سألتها مجددا, إن كانت لديها أرقام هواتفهم لتتصل بهم , وحين قالت : لا

قلت لها بأنه يمكنها أن تأخذ أرقام الهواتف من الاستعلامات حيث أننا ما زلنا في مكتب البريد والاتصالات .

فعلا ذهبت وإياها إلى رجل الاستعلامات الذي بدوره أعطاها عددا من أرقام الهاتف الخاصة بالقصر الجمهوري .

اقترحت عليها أن تحجز مكالمة أو أن تقوم بالاتصال من البريد حيث ما زلنا ننتظر أن ينتهي شعبان من مكالمته مع زوجته, لم تبد استعجالا بل إنها قالت بأنها ستفعل _ أي أنها ستتصل بهم لاحقا .

خرج شعبان من الكابينة, فخرجنا ثلاثتنا من مكتب البريد وتوجهنا لنستقل تاكسيا يقلنا إلى مخيم اليرموك .

في الطريق اقترحت عليهما وقد صار الوقت مساء بعد المغرب, أو بين المغرب والعشاء, أن نذهب إلى مكتب "الهدف" حيث أعمل وحيث يوجد هناك هاتف, وحيث سيكون زملائي من المحررين قد غادروا ولم يبق سوى الحراس والمناوبين وحيث لا يبعد مكتب المجلة حيث اعمل كثيرا عن بيتي, فكلاهما يقعان في مخيم اليرموك وإن كان أحدهما في شارع فلسطين والآخر في شارع اليرموك .

كان مكتبي يقبع في منتصف صالة المحررين, محاطا بجدران زجاجية ذات أبواب من الألمونيوم, وكان فيه مكتبان جلست إلى واحد وجلس قبالتي شعبان فيما تركت الآخر لها, ثم ناولتها سماعة الهاتف, وانشغلت عنها بصديقي, أتحدث وإياه في كل شؤون الدنيا التي انقطع الحديث حولها بيننا قرابة عقد ونصف, كانت هي في تلك الآونة قد بدأت بإدارة قرص الهاتف, وحين جاءها الصوت من الطرف الآخر, قالت له بكل بساطة :

_ إديني حافظ الأسد

ما أن سمعت تلك الجملة حتى سقط قلبي بين قدمي, واصفرّ لوني بعد أن جف الدم في عروقي, نظرت إلى شعبان فأشار لي بيديه وعينيه بما يوحي بأنه متفاجيء مثلي ولا يعرف عن الأمر شيئا .

لم تنقطع المكالمة, حيث قدّرت بأن الطرف الآخر, وهو على الأغلب استعلامات القصر الجمهوري, قد سألها عن هويتها وعمن تكون ؟ أجابت :

_ قل له ليا كلينتون

لم ينقطع الحديث أيضا, حيث كانت تنصت برهة ثم تعاود الإجابة عما يبدو استفسارات من الطرف الآخر للسلك الهاتفي .

_ لا دة أنا جاية مخصوص من كايرو, علشان نازلة الصبح أنا وإياه على جروسالم .

يبدو أنه طلب منها معاودة الاتصال لاحقا إلى حين يكونون قد بلّغوا سيادته, وهكذا وقد غامت الدنيا في وجهي بحيث لم أعد قادرا على احتمال أن يطول الأمر, وقد قدّرت أنهم يطيلون معها الحديث حتى يحددوا مكان المكالمة, وما هي إلا لحظات حتى يكونوا في المكتب يبحثون عنها ليعرفوا قصتها .

حين انتهت لم يعلق كلانا _ اقصد لا أنا ولا شعبان _ ولم نسألها عن أي شيء, هي كانت عادية جدا, ونحن مثقلان بهموم التوقع, سرنا دون أن ينطق أحدنا ببنت شفة عبر الطريق الذي بدا لنا طويلا إلى البيت . بعد أن وصلنا فقط, قلت لشعبان بعد طول تفكير, بأنهم إذا ما وصلوا لنا وسألوا عن الأمر, فإني سأقول لهم الحقيقة, وسأدلهم عليها . وافقني صديقي, وقضينا ليلتنا لم ننم ونحن نتوقع أن يدق العسس بابنا في أية لحظة .

لم يحدث أي شيء من هذا القبيل, وفي الصباح تهيأ شعبان للخروج من أجل البحث عن فندق لان أهم شيء بات الآن بالنسبة لنا, هو أن نخرجها من برنامجنا, ذهبنا ثلاثتنا إلى ميدان الحجاز, أعجبها فندق قصر الملوك لأنه على ما يبدو كان أحدهم قد وصفه لها أو نصحها به, أكثر من ساعتين وشعبان يقنعها بالحجز في الفندق, كان ينتابها شعور بأن مؤامرة تحاك ضدها وأن هناك من يترصدها, لم توافق إلا بعد أن حجز رفيقها في الرحلة, في نفس الفندق غرفة مجاورة لغرفتها, أي بعد أن ضمنت بأنه سيظل معها, ثم راوغت كثيرا وظلت أكثر من ساعة وهي ترفض أن تبرز جواز سفرها لموظف الحجز في الفندق, حينها كانت الفرصة أمامنا أنا وحتى شعبان لنعرف اسمها _ علياء _ .

ما هي الحكاية يا شعبان ؟ كيف جئت بها ؟ وأين تعرفت إليها ؟

_ أبدا كنت في أتاليه القاهرة, اخبر أصدقائي بنيتي في السفر إلى دمشق, ففوجئت بها تقول بأنها سترافقني, ولم أكن أعرف عنها شيئا سوى أني كنت أراها تتواجد في الاتيليه, وهكذا كان, هذا كل ما في الأمر .

النص المتخيل

الفصل الأول

(1967_ 1971)

_ هي _

_1_

كان ذلك اليوم من أيام الصيف, يوما ساخنا, ليس بسبب الجو الحار فقط, بل بسبب ما يحدث على الحدود الشرقية من البلد, ولأن الوقت كان في أول العطلة المدرسية, فأن جميع أهل الحارة كانوا إما في البيوت أو المقاهي .

لفت انتباهها, أن الناس تجلس على المقاهي كثيرا, تشاهد الأخبار من التلفزيون, فسألت أخاها:

هو في إيه

أجابها: هو أنت مش عارفة انه في حرب بين مصر وإسرائيل .

ردت: وأنا اعرف منين, طيب وأنا مالي

قال: مالك أزاي, هي مصر مش بلدنا

ردت: بلدنا وبحبها, بس الرئيس بيحارب وهو اللي يعرف, أنا مش بأعرف بالسياسة ولا بحب الحرب أصلا .

قال بحدة: طيب روحي اعملي لي كباية شاي .

كان احمد سعيد في الخارج يصدح بكل كلمات الزهو والمبالغة, وهو ينقل أخبار العمليات الحربية على الجبهة, لكن لأن حبل الكذب قصير, كما يقولون, فما هي إلا بضعة أيام قليلة, وكانت أخبار النكسة على كل شفة وعلى كل لسان .

نظرت بعينيها من بعيد, فرأت لأول مرة الرئيس جمال عبد الناصر وهو يخطب, ويقول بأنه سيتنحى عن الحكم, رأته رجلا وسيما, أكثر بكثير مما كانت تظن, لذا فما أن وصلت البيت حتى أخذت تبحث في المجلات التي لديها وكانت تشتريها لتتابع أخبار عبد الحليم حافظ, وما أن وجدت صور الرئيس جمال عبد الناصر حتى, قامت بقصها, ومن ثم بإلصاقها في دفتر الصور الذي يحتوي بمعظمه صور عبد الحليم حافظ .

منذ ذلك اليوم صار اسم جمال عبد الناصر مقترنا لديها باسم عبد الحليم حافظ .

_ 2 _

_خدي بالك من روحك يا بت , اياكي حد يضحك عليكي , لاتروحي هنا ولا هنا من المدرسة للبيت عدل .

كانت وصايا أمها العشر تتكرر عليها كل يوم وتلاحقها وهي خارجة من البيت, يظل يتردد صداها في رأسها حتى بعد أن يصبح الصوت غير مسموع عليها .

يحدث هذا رغم أنها لا تخرج وحدها أبدا, ولا تذهب إلى المدرسة إلا مع صديقتها التي تسكن في نفس الحارة, وكثيرا ما كانت تلحظ أن البنات يسرن في الشوارع كقطيع متعدد الأفراد, إحساس القطيع هذا ظل يلازمها طوال حياتها, ولم يبعد عنها يوما الشعور بالوحدة التي عاشتها بكل تفاصيلها وقسوتها بعد ذلك .

كل الأمهات هكذا ولكنها كانت تجد لأمها عذرا بسبب ما تتمتع به من جمال أخاذ ومن أنوثة ناعمة بدأت تقتحم عليها كيانها قبل أن تصل سن النساء .

كانت تشهد هذا كلما وقفت أمام المرآة وكلما اقترب منها ولد في مثل عمرها أو أكبر منها, وحتى كلما نظرت إلى عيني أحدهم هكذا صدفة أو في مناسبة ما بغض النظر إن كان قريبا أو غريبا, من أبناء "حتتها" أو مجرد غريب عابر .

وككل البنات كانت تحتفظ لها بدفتر تكتب فيه خواطرها, يعجبها الشعر وعبد الحليم حافظ, فتحتفظ بصوره ومجلات الكواكب وآخر ساعة بين كتبها المدرسية, وكانت تحلم بأن تمتلك يوما

كاسيتا خاصا تسمع فيه ما تعشق من أغانيه, وكم كانت تذهب إلى عالم آخر حين كانت تقرأ عن فيلم أبي فوق الشجرة, وكانت أغنيها المفضلة "يا خلي القلب" تحفظ كل مشاهدها, وترى نفسها ميرفت أمين التي يغني لها العندليب من أعماق روحه .

من البيت للمدرسة ومن المدرسة للبيت, في الجامعة الحياة ستكون مختلفة, ستتمتع بحرية أكبر, سيكون بمقدورها أن تركب الأتوبيس, وأن تتعرف إلى زملاء وزميلات وأن تشتري ساندويتشا وأن يكون لها مصروف أكبر والأهم من كل ذلك سترتدي ملابس خاصة, غير الزي الموحد المدرسي, سيحق لها أن تطلب من أهلها شراء فساتين, بنطلونات وبلايز جديدة ومتنوعة, وسيكون بمقدورها أن ترتدي "جيبة" فوق الركبة, وأن ... تضع كحلا في عينيها وحتى أن تجرب أحمر الشفاه والميك أب .

_ 3 _

رغم أنها كانت البنت الصغرى, أي أنها كانت اصغر من أخويها, اللذين لم يكونا ناجحين في المدرسة, إلا أنها لم تكن مدللة, بل على العكس تماما, كانوا بالكاد يقبلون أن تواصل دراستها, وكانت إضافة إلى القيام بواجباتها المدرسية, تقوم بمساعدة أمها بأعمال البيت المختلفة, وما أن يعود "الرجال" إلى البيت, حتى تبدأ الأحكام العرفية بالنفاذ, ويبدأ الشخط واللغط

هاتي يا بت .

انت يا بت يا علية

رغبت في أعماقها لو أنها خلقت ولدا

كانت تنظر إلى زهو أخويها الفاشلين, فقط لمجرد كونهما ذكرين, فيملأها الغيظ والحنق .

_ 4 _

ياه ما أحلى أيام الجامعة, صارت تعد الأيام والليالي, وتواظب على دروسها حتى تحصل على أكبر مجموع في الثانوية العامة, ستكون كارثة لو أني لم أحصل على مجموع يؤهلني دخول الجامعة .

أغلقت كل نوافذ العبث الطفولي وانكبت على دروسها حتى لا تفوتها الجامعة, هي أصلا متفوقة منذ صفها الأول, الله يكملك بعقلك يا علية اسم الله عليكي يا ماما وتجيء لها بساندويتش الجبنة البلدية التي تحبها, مع كأس من الشاي إلى أن مرت الليالي الصعبة وظهرت النتيجة .

دكتورة إن شاء الله

إن شاء الله

يوم الجمعة سنذهب كلنا إلى البلد لأفي بالنذر, ونوزع الطعام على كل أهل النجع, كم أشعر بالراحة حين أسعد مسكينا أو أطعم جائعا, أذكر يومها جيدا كيف إني لم أتمالك نفسي حيث وثبت واحتضنتها وقبلتها دون أن أقول شيئا .

_ هو _

_ 1 _

هم محقون فأنا أميل إلى الوحدة, وماذا في ذلك ؟ الوحدة تمنحني الوقت للتفكير العميق, كما أفعل الآن .

يضع يديه تحت رأسه وهو مستلق على ظهره على شاطئ الأزرق المائي الممتد أمامه أو تحت قدميه تماما, هي عادة على أي حال لا يذكر منذ متى رافقته, ويظل هكذا إلى وقت متأخر من الليل, حتى أنه أحيانا ينسى نفسه وينام, وحين يصحو تنقله أقدامه إلى البيت فقط حتى يجنب أمه قلقا قد يذهب بالنوم من بين جفنيها .

الليل يطوي أسرار الناس والبحر أيضا وهو شغوف جدا بالأسرار, يشعر بمتعة بالغة وهو يكتشف بعضها حتى لو قضى وقتا وبذل جهدا كبيرا في الوصول إليها, تكاد تكون متعته المفضلة, لذا فقد بات البحر والليل خليليه المفضلين اللذين يقدم صحبتهما على أصدقائه .

يتأمل البحر ويسترجع كل ما قرأ في التاريخ, يا للبحر كم هو مثير, عبره مرّ عظماء السياسة ورجال الحروب, إلى هنا جاء الاسكندر المقدوني, وعبر هذا البحر جاب الفينيقيون العالم بتجارتهم, لذا فقد بات البحر بزرقته مرادفا للأحلام, لا يعرف لماذا كلما اختلى بنفسه على شاطئ البحر في الليالي المقمرة يرى عبر صفحته سفن الغزاة والتجار والسائحين, هو شرفة إذا تفتح أفقنا على الخارج, عليك أن تحسن السباحة فيه جيدا حتى تسيطر عليه, كيف يمكنك أن تأمن في بيتك إذا ما تركت باب الدار مفتوحا على مصراعيه ؟ وهل يمكنك أن تعرف ما يدور خارجا إن لم تكن لديك بوابة تفتح على الخارج ؟

يبدو الأمر مثيرا لدرجه يمكنه معها أن يجعل منه موضوعا للدرس الحزبي بعد غد .

_ 2 _

استهوته العاصمة بغناها ونظافتها, كل شيء فيها مرتب ونظيف, النساء, المطاعم, الحمامات, الناس هنا يلبسون ثيابا أنيقة وجلّهم يعمل في التجارة, لا كما حال منطقتهم حيث معظم الناس فلاحون يعملون بالزراعة وبالكاد يعرفون الخبز والجبنة ومشتقات الحليب الذي تحلبه النسوة من الأبقار والأغنام, أقيم في العاصمة إذا ؟!

عليك أن تفضل أن تكون الأول في القرية على أن تكون الثاني في المدينة, تلازمه مقولة الأب كيندي الأمريكي الذي أنجب الرؤساء . الإقامة في المدينة بحاجة إذا إلى إعداد جيد, لن أذهب إلى هناك لأعيش في الظل .

وما دمت هنا ... لو كان الفقر رجلا لقاتلته ..

هذا هو إذا, لا يفارق مخيلته طيف عبد الناصر . رجل لا كما الرجال, وسيم, قوي, إنه فخر الأمة العربية بأسرها, عليك أن تحتفظ بإعجابك بالرجل لنفسك, وعليك أيضا أن لا تصرح به, فالرفاق في الحزب لا يرتاحون لسيرته كثيرا, يرونه خصما يحد من اقتناع العرب بمقولة الحزب :

امة عربية واحدة ... ذات رسالة خالدة

وحدة .. حرية .. اشتراكية

لم يصر هو على أن يختلف

حرية ... اشتراكية ... وحدة ؟

كيف يكون الفرد بديلا عن الحزب ؟

لا بد أن يتحول إلى ديكتاتور

هناك عرب رجعيون وهناك عبد الناصر . مع من سنحقق الوحدة إذا ؟

الوحدة هي وحدة جماهير وليست وحدة أنظمة, وأداة الوحدة هي الحزب الذي يجب أن يتواجد في كل قطر عربي, لكن الجماهير العربية بأغلبيتها مع عبد الناصر !

كيف يمكن لحزبنا أن يحقق أهدافه بتجاهل عبد الناصر ؟

تؤرقه الأسئلة

يشعر على أي حال بارتياح, فهو بدأ في تحديد هدفه, ما يريد وما يرغب بوضوح, وبينه وبين تحقيق أهدافه النهائية, الكلية العسكرية, فالجيش هو عنوان القوة والسلطة وهو مدخل الثورة العربية التي يحلم بتحقيقها .

_ هي _

رغم أن أهل القرية جاءوا جميعا من أجلها, إلا أنها آثرت أن ترتمي في حضن الحقل, تركض بين عيدان الذرة تلمسها عودا عودا كأنها تعرفها جميعا, ثم تتمدد على الأرض بينها فتشعر بحنان يتسرب إلى كل ذرّة في كيانها, كم تعشق الأخضر, اللون بحد ذاته مريح لها, ترتاح أعصابها بين الزرع وتتنفس بعمق, وحين تقف على أول الحقل يطيب لها أن تمد نظرها إلى آخره فترى الخير ممتدا إلى مالا نهاية .

تحب الفلاحات, لطيبتهن وسذاجتهن, بعضهن كن أترابها لكنهن لم يتعلمن مثلها, فما إن تأتي حتى يتحلقن حولها يسألنها عن مصر وعن أهل مصر وإن كانوا تماما كما يرونهم في السيما ؟

تهرب من معظم أسئلتهن فهي على أي حال لا ترتاح لمثل هذه العلاقة حيث تكون هي في مستوى أعلى, تشعر بالخجل, بل حتى بشيء من العار, وكأنها المسئولة عن فقر وجهل الفلاحات في كل النجع, كل هذا يمكن لها احتماله, أما أن ترى إحداهن تقوم بحلب بقرة, فهذا أمر يفوق الاحتمال, لم تتمالك أعصابها يوما وصرخت حرام عليك أنت بتعملي إيه ؟

استغرب الجميع مما رأوا ومما سمعوا

مش حرام عليك ؟ دة اللبن دة بتاع عيالها, وحتى لو هم كانوا شبعانين فمش من حقك تحلبيه لروحك ولعيالك !

كانت في الحقيقة تفترض للحظة أنها البقرة التي تقوم النسوة بحلبها, دون إرادتها, حيث رأت الحليب وكأنه الدموع التي تنساب من عينيها, وطالما حلمت بذلك الكابوس المزعج, حين كانت تنهض من نومها فزعة, أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

اسم الله عليك يمة في إيه ؟
حلمت اللهم اجعله خير إني ممدة على البلاط وفي ست وحشة راكبه على صدري وعمالها تحلب في صدري

كان بيوجعني أوي وكنت بصرخ ومحدش سامعني .

اللبن خير يا ماما . إن شاء الله بشارة خير تهل علينا . وتتابع هو اللبن مش ابيض ؟

البياض في الحلم خير

ربنا يديلك على قد نيتك قولي يا رب

يا رب

_ هو _

_ 1 _

هو يحب همنجواي رغم انه أمريكي, كم أقنعته فكرة الشيخ والبحر, الإنسان قد يدمر لكنه لا ينهزم, هو هكذا, يشعر في قرارة نفسه كأنه صنع من الفولاذ, قرأ الرواية عدة مرات, وكم كان يستمتع بمكابدة الشيخ لأهوال البحر . شيء واحد هو متأكد منه رغم تداخل الأشياء فيما بينها, هو أنه لن يكون شخصا عابرا في هذه الدنيا, يشعر في داخله كأن أمرا ما منوط به أو كأنه إنما خلق ليؤدي مهمة ما, ورغم أنه يؤمن بالقدر إلا أنه متأكد من أن شيئا لن يتحقق هكذا بالصدفة أو بسهولة, فحتى تكون متميزا عليك أن تختلف في طريقة حياتك عن أترابك وحتى عن كل الآخرين, يراقب نفسه أحيانا فيرى أن طريقته في الأكل مختلفة, في الحديث, في التفكير, في الاهتمام, حتى أنه لا يلحظ أنه وقد دخل منذ وقت طور المراهقة أنه قد فعل ما يشين أو ما يتعارض وطبيعته المتزنة .

منذ أن قرأ الشيخ والبحر وهو يعكف على تدريب نفسه على تجشم المشاق, فهو يلجأ إلى المشي مسافات طويلة دون أن يكون للأمر هدفا آخر غير تدريب نفسه على المشقة, ويقوم بالسباحة ليس بهدف التسلية أو مواجهة حرارة الشمس, بل يذهب بعيدا كأن سفينة كان على متنها وقد غرقت في عرض البحر وبات عليه لزاما أن يعوم حتى أقرب شاطئ . يمتنع عن تناول الطعام أياما, ويدخل أياما وأسابيع في صوم عن تناول اللحوم, ثم يواظب على تمارين اليوغا, ويكثر من التأمل والتفكير, يدرب ذهنه ومخيلته على توقع الاحتمالات, يسير بالساعات في حرّ الشمس, ويفعل الأمر ذاته أيام الشتاء والبرد القارس, حتى صار قوي الشكيمة, بالغ الاحتمال, صبورا ومواظبا, هذه صارت أهم صفاته التي لم يطبع عليها منذ ولادته, بل بعد أن درّب نفسه عليها, في انتظار المهمة التي لم تتضح معالمها أمام ناظريه بوضوح بعد .

في الحقيقة هو غير متأكد تماما إن كان يحب همنجواي أم شيخه, هل يفضل أن يكون المخرج أم بطل المسرحية, حين يفكر في الأمر ويرى أن المخرج هو سيد العمل, يحرك الممثلين كما

يشاء, ويرسم الحركة ويقرر شكل الإضاءة والمؤثرات الصوتية, حتى أنه يختار النص إن لم يكتبه, ويعيد قراءته وفق تأويله الخاص, ينحاز للمخرج فيرى نفسه مخرجا,المخرج هو سيد المسرحية بلا منازع, وهو يشبه إلها يقوم بخلق الكائنات, إنه السيد المطاع ... لكنه في الوقت ذاته يجلس عند العرض وراء الكواليس, لا يأخذ حظه من الشهرة والإضاءة, يتعلق الناس (المشاهدون) ببطل المسرحية, ولا يفطنون لمخرجها .. حينها يفضل أن يكون هو الممثل, هذه مشكلة .. قد تكون في الناس وليس في تقاليد العمل المسرحي ... يبتسم للهاجس .. هو يرى مسرح الحياة لا يتخلف كثيرا عن مسرح الخشبة .. من الصعب أن تكون مخرجا وممثلا في الوقت نفسه, وفي عمل واحد بالتحديد, لكن الأمر ليس مستحيلا . هو يعشق القيام بالأمور الصعبة, وإن كان لا ينسى ما قاله نابليون يوما من أن المستحيل كلمة توجد فقط في قاموس الحمقى .

المهم عنده هو أن لا يقتصر هدفه على الانتماء وحتى التقدم في صفوف الحزب . فإذا كانت النفوس كبارا, تبعت في مرادها الأجسام, وذلك يعني بأن عليه أن يخطط منذ الآن طريقه ويرسمه بدقة ووضوح, عليه أن ينتسب للكلية العسكرية وأن يتخرج منها ضابطا, ومن ثم يتقدم في السلك العسكري, حيث السلطة والقوة, صحيح أن كثيرين من منطقته يسلكون الطريق ذاته, لكن قليلين فقط من يتملكهم الطموح الكبير الذي يتملكه منذ وعى على الدنيا, المهم الآن أنه حصل على الثانوية العامة, وبتفوق لذلك فإنه يمكن القول بأنه قد خطا الخطوة الأولى في طريق الألف ميل نحو .... المجد, الشهرة .. أية شهرة وأي مجد !

تتراءى العواصم أمام ناظريه كنجوم تتلألأ وتنتظر أن يطأها بأقدامه, يملأه الزهو وكأن المدن التاريخية سيزيدها حين يقطنها مجدا وعزا, رغم الفقر الذي نشأ فيه, إلا أن الأنفة التي تملأ كيانه لا مثيل لها, حتى أنه يشعر في قرارة نفسه ليس بأنه مغرور, بل يشعر باحترام شديد يكنّه هو لنفسه, وما دمت تحترم نفسك, فإنه لابد أن الآخرين سيحترمونك .

إمض إذا في طريقك أيها المحترم

لا ينسى بالطبع في طريقه إلى العاصمة, أو إلى حيث سيلبس الزى العسكري, كما يفعل دائما أن يمر على ضريح أبي سليمان يقرأ على روحه الفاتحة ويستمد منه العزم والشكيمة . أي قائد كنت أنت ! ما كان هناك مكان في جسدك ليس فيه إلا طعنة رمح أو ضربة سيف, ورغم ذلك مت على فراشك كما يموت البعير .

لا عليك نم قرير العين فمنذ أكثر من ألف سنة لم تنجب النساء فارسا ولا قائدا مثلك يا شيخي وسيدي .

تمنى لو أن أباه كان سمّاه خالدا

اسمه ليس بيده لكن كنيته هي كذلك

وهكذا كان منذ صغره يكني نفسه بابي سليمان تيمنا بشيخه وسيده الذي يرقد هنا منذ سنين طويلة .

_ 2 _

رغم أن الطريق من مطار القاهرة, حتى العتبة, يعتبر طويلا, إلا انه بدا إليه مشوقا, فطوال الطريق وهو يتلفت يمينا وشمالا, يعد العمارات والأشجار, ويحاول أن يحتفظ بذاكرته بكل ما يمر به, من معالم ومن تفاصيل, تشعرك القاهرة بأنها مألوفة لديك, حتى وإن كنت تزورها لأول مرة, ليس عبثا إذا أنهم قالوا عنها أم الدنيا, هي أم العرب, أمنا جميعا, يقينا بأني لم أشعر ولن أشعر بمثل هذه الألفة التي اشعر بها الآن, إلا في ضيعتي .

ستمر بضع سنين بعد ذلك, وسيحرص كلما سمح له الوقت بالمجيء إلى العتبة, والتجول في شارع الحسين, وصولا إلى المسجد, والأزهر, ثم الجلوس في الفيشاوي, ومن ثم لو كان تبقى وقت الذهاب إلى القلعة .

وخلال سنوات أقامته بمصر, حاول أن يزور كل مدينة من مدنها وكل قرية, شعور لا يدري ما هو سببه, يشعر دائما, بأن كل متر مربع من مصر يخصه, وأن كل مصري أو مصرية, إنما هو شخص عزيز عليه, حتى أنه ربما كان قريبه بالدم والعصب, أي حب هذا الذي اجتاحه منذ أول لحظة دخل فيها مصر, تذكر قوله تعالى: أدخلوا مصر آمنين .

_ هي _

_ 1 _

لا تكاد تتخيل أول يوم ستذهب فيه إلى الجامعة, كانت تفضل أن يكون يوم عيد ميلادها, على أي حال هو لا يبتعد كثيرا عنه, ومن جهة أخرى ستعتبره منذ هذه السنة عيد ميلادها الثاني, هذا الذي تشعر هي بأنها قد حددته بنفسها وقد سعت إليه, ماذا لو لم تحصلي على المجموع الذي يؤهلك لكلية الطب ؟

كنت أعيد السنة

دون تردد أجابت على الخاطر الذي جال بذهنها .

هي تعرف نفسها جيدا, صحيح أنها هادئة الطبع, وادعة, ناعمة, تحرص دائما على أن لا تؤذي أحدا حتى ولو بكلمة, مهذبة لكنها عنيدة, أو لنقل إنها تتمتع بإصرار عنيد وبمثابرة, فهي ما أن تحدد ما تريد, أو ما ترغب في الحصول عليه, حتى تسعى إليه بكل قوتها, ثم تحافظ عليه بأيديها وأسنانها, عميقة الغور, لا تحب بسهولة, لذا فهي تظن أنها ما أن تجد فارس أحلامها حتى تغلق عليه كل الأبواب, ولا تتركه طوال حياتها, وإن غدر بها يوما .. فيا ويله منها, لن تتردد في قتله, من ستكون صديقتها في الجامعة, لا تعرف حتى اللحظة, لكنها في كل الأحوال ستفضل أن تبقي على صداقتها لمديحة, حتى وإن كانت في كلية الآداب, فهي صديقة طفولتها وهي جارتها منذ كانتا صغيرتين, ومن الأفضل لهما أن تترافقا في الطريق بين الجامعة والبيت, تجنبا لوحشة الطريق, ولما يحدث فيه عادة من مضايقات يقوم بها الشباب للفتيات دون أي وازع من أخلاق أو ضمير .

هل انتهت رحلتك مع المذاكرة عند هذه الحدود يا علية ؟

هاهاها هكذا

تضحك من أعماقها

بالطبع لا

أنا لا أقدم على عمل إلا وأعطيه حقه تماما, أنا لم أذاكر فقط في الثانوية العامة, فقد كنت متفوقة منذ الصف الأول الابتدائي, ولم لا أتابع مشواري, فربما فضلت الحصول على الماجستير ومن ثم الدكتوراه لأدرّس في الجامعة, حيث أني أفضل التدريس على العمل في مستشفى أو في عيادة خاصة . من يدري ؟ هذا ما لم أقرره بعد .

وربما تفضلين الزوج على كلا الأمرين معا

أنا ؟ مستحيل

مين عارف بقول يمكن

معقول ؟

ما الذي يدفعني إلى ذلك ؟ على أي حال نحن هنا نرتبط بمن هم زملاء لنا في كثير من الأحيان, وفي معظم الأحيان ممن هم من طبقتنا, أكيد سيكون بحاجة إلى عملي والى راتبي الشهري حتى نبني بيتنا معا ... تعرفين يا مديحة أنا لست قلقة, اللي زيك يا بنتي هي اللي تقلق على روحها .. أنا جميلة ودكتورة, يعني ألف عريس حيدقوا بابي وأنا حافتح بس في الوقت المناسب, وللعريس المناسب, الدور عليك بقى ...

تنتبه إلى أن صديقتها قد أخذت على خاطرها

انت زعلت يا بيضا ؟ لا والنبي دة أنا بهزر معاكي, خلاص بقى تحضن صديقتها بكلتي يديها, مفيش حاجة, بس أنا كنت عايزة أقولك مين عارف مش يمكن تحبي واحد من الطلبة العرب, وياخدك من غير ما تكملي تعليمك ؟

أنا (مستغربة) وعربي ؟ ليه هو انت شايفاني مش لاقية وألا إيه ؟ على أي حال, الكلام دة بدري عليه أوي, وكل شيء قسمة ونصيب .

تصمتان وتواصلان سيرهما إلى حيث الهدف الذي سهرتا الليالي من اجله .

_ 2 _

في يومها الأول تذكر أن دافعا داخليا كان يدفعها إلى التطلع بين الفينة والأخرى في وجوه زملائها وزميلاتها, كأنها تريد أن تتعرف إليهم جميعا منذ أول لحظة, كان الفضول متعدد الأوجه والدوافع يدفعها إلى ذلك . هي كانت معتادة أن تراقب منافساتها على التفوق في الفصل المدرسي و لكن الآن هناك أسباب أخرى تدفعها للحاجة إلى التعرف على زميلاتها وزملائها, تتطلع في وجوههن لترى من كانت أكثر منها جمالا, وبعد لحظة كانت تشعر بارتياح لا مثيل له, أما على الجهة الأخرى فكانت كأنما تبحث عن شيء يستقر في أعماقها, لا تدرك كنهه تماما لكنه يدفعها إلى اختطاف نظرة سريعة, لعله يكون لها رابطا بنبضة القلب البكر .

في الطريق إلى البيت كان الشعور مختلفا وكأنها رأت شيئا كان أقل من التوقع, أو ربما أنها كانت ترغب في أن يبقى باعث الاكتشاف قائما, لاحظت مديحة هذا عليها من خلال صمتها ومن خلال المقتضب من الكلام الذي ترد به على أسئلتها .

انت مالك ؟ ما عجبتكيش الجامعة والا إيه ؟

_ لا ليه ؟

تضحك

أصلي شايفاك مبلمة لا من تمك ولا من كمك

_ يا سلام !

ايه رأيك إذا ما عجبتكيش الكلية, تحولي آداب ؟

_ واللة فكرة !

ألقت الكلمة فقط حتى تصمت صديقتها .

وفعلا هي كانت تشعر بانقباض, وكأنها ترغب في البكاء . لم تعلم سببا لهذة الرغبة الغريبة .

_ 3 _

لن تنسى بالطبع ذلك اليوم ما دامت على قيد الحياة, فقد كان اليوم الثاني في الأهمية بالنسبة لها, بعد يوم مولدها ومجيئها إلى هذه الدنيا, فحين انتهت من محاضراتها في وقت متأخر وكان عندها عملي, فلم يكن بمقدور مديحة أن تنتظرها, لذا اضطرت للعودة وحدها, كان الظلام قد حلّ, ومنذ أن صعدت إلى الحافلة وجلست في ذلك المقعد إلى جوار شاب ما, أجعد الشعر, لم يتوقف عن الحديث معها بصوت خفيض, وهي لا ترد, بدأ يبدي إعجابه بها, ثم صار يقول لها بأنه يرغب في التعرف إليها, أين تسكن, بأي كلية هي, فهي قد أعجبته من أول نظرة, ثم قال لها بأنه ينوي الزواج, وهي لا ترد, حتى شعرت كم هو موحش وطويل, الطريق من الجامعة إلى البيت, وما أن وصلت إلى المحطة القريبة من بيتهم, حتى تنفست الصعداء, ياه ما أثقل دم هذا الشاب . الشباب غريبون بشكل عام, فما أن تعجبهم فتاة حتى يعتبرون الأمر كافيا للحصول عليها بأي شكل, فلو كانت "مايعة", فإن الأمر يتم بسرعة وسهولة ويسر, أما إذا كانت محترمة فيمكن الدخول في عرض الخطوبة والزواج وما إلى ذلك, وما دام القصد شريف فإن الأمر من أوله لأخره مشروع, ولا يسأل أحدهم نفسه إن كان هو يعجبها أم لا .

حتى النساء تقول, ما يعيب الرجل إلا جيبه . فما دامت قد أعجبته ولديه مال يشتري به شقة وعفش ويدفع مهرا, فأنها ستكون له !

أصابتها الدهشة حين رأته قد نزل وراءها, ثم تبعها إلى أن دخلت العمارة, وعلى الدرج, اقترب منها كثيرا, وبدأ يتحرش بها, شعرت بخوف شديد, فهرولت صعودا على الدرجات, وهي تصرخ فيه قائلة : ما تختشي, أنت معندكش دم وألا أيه ,,

في لحظة انشقت الأرض عن شاب لم تكن قد انتبهت له من قبل, يلحق بهما, ثم يقبض على الشاب من ياقته, ويلقي به أرضا ثم يوسعه ضربا, إلى أن بدأ الشاب الذي تحرش بها بالصراخ والعويل كما لما لو كان بنتا .

لحظات وكان جمع من أهل الحارة قد اندفع إلى مدخل العمارة, وفضوا العراك بين الشابين, ثم بدأ الجدل إن كانوا سيأخذونهما إلى القسم أم لا, لم يكن لدى الشاب الذي هب لنجدة البنت أي مانع من الذهاب للقسم, لكن الشاب المتحرش رفض, فهو ورغم أنه تعرض للضرب الواضحة آثاره على وجهه وعلى جنبيه, إلا أنه رفض أن يذهب للقسم, ولا حتى ليشتكي, فهو يعرف بأنه لو ذهب للقسم لربما تعرض لضرب أضافي, أو حتى لتوقيع محضر بعدم التحرش مرة أخرى, وربما صار بذلك "سوابق" .

لذا فقد انفض الجمع, وذهب كل إلى بيته أو محل عمله, توجهت بالشكر للشاب الذي عرفت أنه يسكن في نفس العمارة, ثم ما أن دخلت البيت حتى استقبلتها أمها بالسؤال عن الضجيج الذي سمعته في مدخل العمارة .

فغرت الأم فاها حين عرفت بأن كل ما سمعته كانت ابنتها هي محوره وسببه, وحين عرفت التفاصيل, أخذتها من يدها وقالت لها يجب أن نذهب للجار ونشكره .

منذ ذلك اليوم, صارت الأم تهتم بالشاب, خاصة حين عرفت أنه عربي وأنه غريب بلاد, وفي كل يوم إما أن تدعوه لتناول الطعام عندهم أو ترسل إليه بأطباق الملوخية والمحاشي ومن كل ما تقوم بطهيه من طعام يشتهيه الشبان العازبون عادة .

ومنذ ذلك اليوم صار حافظ السوري, هكذا كانت عليّة وأمها تعرفانه, وليس أكثر من ذلك, صديقا أو أخا مقربا من علية, وابنا للسيدة أمها, لكنه لم يكن كذلك في نظر سكان العمارة الآخرين, ولا الجيران من سكان الحارة, ولا حتى بنظر زميلات علية بالجامعة ولا أصدقاء أو زملاء حافظ بالكلية الحربية .

_ هو _

_ 1 _

لم يكن في مطلع شبابه يثير له الاسم أية مشكلة ولا كان يعني له شيئا غير عادي, فالاسم متداول في المنطقة, ورغم أن أباه كان فلاحا, إلا انه كان فتى به طموح, وكان هدفه أن يحقق رغبة أبيه في أن يكون ضابطا بالجيش العربي السوري, يرفع من شأن أبيه وكل عشيرته, هذا لو أنه تقدم, وحصل على رتبة كبيرة في زمن قياسي, وحتى يحدث هذا, فعليه أن ينخرط في صفوف حزب البعث, لذا فإنه انتسب لشعبة الحزب في بلدته, وهو في سن السابعة عشرة, وما أن حصل على الثانوية العامة بتفوق, حتى كان يتقدم للكلية العسكرية, ثم لدراسة العلوم العسكرية في قاهرة المعز .

ظل يحلم طوال الأيام التي سبقت سفره إلى مصر, بهذا القطر, الذي كان على قناعة تامة بأنه يشكل مع بلده, سوريا, القطر العربي التوأم, اللذين بتوحدهما يفتحان الباب للوحدة العربية المنشودة, تذكر حركة الانفصال عام 1961, وأستغرب كيف يقوم نفر من أهلنا بإسقاط هذا الحلم الذي تعيش عليه الملايين منذ سنوات .

رأى في علية البنت المصرية, صورة عن فتاة أحلامه التي لا حدود لها, وقال في سره, بأن زواجه منها, يعني تحقيقا لقناعته بأن مصر وسوريا لا بد أن تتوحدا طال الزمان أم قصر, ألم يفعل هذا صلاح الدين الأيوبي, الذي حين وحّد مصر وسوريا, امتلك القدرة على دحر الصليبيين في حطين وتحرير بيت المقدس, ثم ألم يفعل هذا قطز أيضا فكان أن هزم المغول في عين جالوت بفلسطين, فمصر منذ أحمس الذي حرر بلاده من الهكسوس, عرفت منذ ذلك الوقت بأن الدفاع عن أرضها وحدودها, يبدأ من فلسطين, ولهذا فحافظ السوري مقتنع تماما, بأن الاستعمار زرع إسرائيل في فلسطين بين مصر وسوريا, من أجل منع الوحدة بينهما, وبالتالي من أجل منع العرب من تحقيق الوحدة العربية التي لو تحققت في يوم من الأيام فأنها ستجعل من العرب قوة عظمى في العالم بأسره .

الخطوة الأولى أذا هي أن يحصل على لقب ضابط, وفي الوقت نفسه أن يتزوج علية, فيعود إلى قريته, على كتفه النجمة العسكرية تتلألأ, وبيده عروسه المصرية, التي بزواجه منها يحقق نصره على الانفصاليين .

أما هي فكانت تحلم بارتداء مريول الطبيبة الأبيض, ومنذ عرفته صارت تحلم بثوب الزفاف الأبيض, تنتصب أمامها صورة ميرفت أمين, وعبد الحليم حافظ يغني لها في "أبي فوق الشجرة" فتطير إلى عالم آخر, يخرجها منه دائما حيث كان يحدثها طول الوقت عن الوحدة العربية, وكيف لو أن العرب جميعا توحدوا في دولة واحدة, لصارت من أعظم دول العالم, ولصار بمقدور العرب أن يحرروا فلسطين فورا, ومن ثم أن تتصل سوريا بمصر عبر البر, بحيث يصير بمقدوره أن يأخذها بالسيارة من القاهرة إلى دمشق, ثم إلى الضيعة على ساحل الشمال السوري, مرورا بالعريش وغزة والقدس, وكان على قناعة تامة بأن وحدة مصر وسوريا هي مفتاح الوحدة العربية الشاملة, وأن وحدة مصر وسوريا هي مفتاح النصر وطرد الأعداء والمحتلين .

مع مرور الوقت, هو علمها الاهتمام قليلا بالسياسة, ومن ثم أن تحب عبد الناصر, وان تؤمن بوحدة مصر وسوريا, فيما هي علمته أن يهتم قليلا بنفسه, حتى صار يقول: إن لجسدك عليك حق .

حين كان يحدثها عن السياسة, كان يشعر كما لو كان يحدث نفسه بصوت عال, ليس لأنهما متوافقان في الرأي, وليس لأنها تهز رأسها وتوافقه في كل ما يقول, بل لأن اهتمامها المحدود بتفاصيل السياسة, جعلها لا تعرف عنها الكثير, كان يود في حقيقة الأمر أن يحاور أحدا مختلفا معه, كما كان يفعل وهو في بلده, حين كان يدخل في جدل مع كادر حزبي من جناح صلاح جديد في حزب البعث, أو مع احد كوادر الحزب الشيوعي, الذين كانوا يأخذون على حزب البعث العربي السوري خلافه مع حزب البعث العراقي, وعدم قيام البلدين في ظل حكم جناحي حزب ميشيل عفلق بانجاز الوحدة بينهما, حينها كان يرد عليهم بالقول, بأن المعيار هو بوصلة

مصر, العمود الفقري للوحدة العربية يكون بين سوريا ومصر وليس بين سوريا والعراق, أو بين مصر والعراق, وخير دليل على ذلك أن من أطاحوا بالنظام الملكي في العراق عام 1958 نصبّوا الشيوعي عبد الكريم قاسم رئيسا, في الوقت الذي ذهبت فيه سوريا للوحدة مع مصر, وحتى أنه بعد أن أطاح الجناح القومي في حزب البعث العراقي بقاسم وتولى صديق عبد الناصر عبد السلام عارف الحكم, لم يقم ولا حتى بعد انفصال سوريا عن مصر, بإعلان الوحدة بين مصر والعراق . ثم يضحك قائلا, لا تنسوا التاريخ يا رفاق, فقد نشأت في سوريا دولة الأمويين, العرب الأقحاح, فيما نشأت في العراق دولة الموالي, العباسيين, كان يقول هذا وهو يعرف بأنه حين يصل إلى تلك الكلمة, فإن النقاش سينفجر لا محالة !

_ 2 _

كان يكاد يقع على ظهره من الضحك, حين كانت تلفظ أسمه هكذا : حافز, فهي أولا وأخيرا بنت مدللة, ورغم أصلها الفلاحي إلا أن لون بشرتها ولون عينيها يشي بوجود دم غربي في عروقها, يعود لجدتها من جهة أمها, ذات الأصل التركي .

يقبل منها هذا اللفظ على أي حال, فهو أفضل من أن تناديه باسم دلع من قبيل حاحا, أو ظاظا, والذي بالتأكيد ستلفظه هكذا : زازا, ويشكر الله أنه لم يذهب لتلقي علومه العسكرية في بلد أجنبي, روسيا أو ألمانيا, بولندا, أو أي بلد أوروبي شرقي, حيث من يدري ربما كان قد التقى فتاة أوروبية شقراء, لا تعرف حرفا عربيا واحدا, حينها مثل تلك الفتاة كانت ستناديه : هافز .

ما كان يحببها على كل حال بإسمه الذي هو دون شك صعب على النطق, ثقيل ونادر, إضافة إلى أنه اسم قديم, هو أن مطربها المفضل عبد الحليم يحمل اسم حافظ, أما هو فكان يجيبها حين تسأله عن سر "فظاظته", قوته وقسوته حتى, بأن السر يكمن في أنه ولد وترعرع في الجبل وبين جنبات الفقر, حيث الحياة صعبة, يحدثها عن قريته التي تقع على قمة جبل ينحدر بقوة ليصل نزولا بنحو ألفي متر إلى حافة البحر, وكأنه معلق لفترة من الوقت, حيث سيجيء يوم يسقط فيه ويغرق بما يحمله على كاهله في صفحة الماء الزرقاء . تهز رأسها فيعرف بأن المعنى لم يصلها تماما, حينها يضحك ويقول لها, احكي لك من الآخر, السبب هو ان الفظاظة جاية من حرف الظاء بأسمي, شفتي أني اسم على مسمى, حينها تبدي قدرا من الذكاء فتقول له: لا مش مصدقة, مش صحيح, أهو عبد الحليم رقيق جدا, واسمه حافظ, فيرد لها, أولا هو اسمه الأول عبد الحليم, وثانيا أسم حافظ اسم شهرة, أطلقه عليه حافظ عبد الوهاب, يعني هو رقيق لأن أسمه عبد الحليم, لو كان عبد القوي وألا عبد الجبار, كان غنى متل فهد بلان والا محمد عبد المطلب, هههه .

تشعر هذه المرة بأنه قد أقنعها فتقول: طيب اعمل ايه اغير لك اسمك ؟

كانت هيئة حافظ تشبه بطوله وعرضه وحتى صوته الجبلي العريض هيأة المطرب السوري فهد بلان, وهو كان يحبه نظرا لما بينهما من تشابه في الشكل, لكن بقدر ما كان معروفا عن فهد بلان طيبته, كان حافظ لا يفتقر إلى الحذر ويتمتع ببعض الخبث .

يجلس إلى جوارها في المقعد الخلفي للتاكسي, فتمسك يده, أما هو فيخرج رأسه من النافذة ويحيي كل من يراه على طول الطريق .

وحين يصلان كوبري قصر النيل, ينزلان, فيشتري لها الذرة المشوية التي تحبها ولنفسه البطاطا التي يحبها, ثم يجلسان على الكورنيش مثل الكثيرين, يضع يده على كفتها ويغني لها :

لأركب حدك يا الموتور .

_ هي _

_ 1 _

في يوم من الأيام عادت من الجامعة, يبدو عليها الكدر, دخلت غرفتها وأغلقت عليها الباب دون أن تتناول الطعام, استغربت منها أمها, وحين سألتها عن السبب, أجابتها بأنه ليس هناك شيء, مرت الساعات وعليّة كما يناديها الجميع إلا هو الذي كان يقول لها: خطأ, اسمك علياء, ويفخم النطق, ليليق بملكة أو سيدة راقية, دون أن تخرج من غرفتها, في المساء جاء حافظ, فاستقبلته الأم بالقول:

بركة انك جيت يابني

_ خير يا أمي في شي ؟

_ أبدا, بس علية مش عارفة مالها, من لما جت ما اكلتش ودخلت اوضتها وما خرجتش من ساعتها, أنت مزعلها بحاجة ؟

_ أبدا ولا شفتها . طيب خليني أشوف مالها

دق عليها باب غرفتها, وقال : عليائي أنا حافظ من فضلك بدي احكي معك .

فتحت الباب وخرجت والدموع تملأ عينيها

حضنتها أمها وقالت : مالك يا بنتي

وقال هو: صار معك شي

بعد إلحاح منهما, قالت :

أنا النهاردة تخانقت مع مديحة

كانت الأم قد ذهبت للمطبخ لتعد الشاي

فسألها: منشان شو طيب اتخانقتو

_ أبدا, كنا نتكلم عادي, وسألتني عنك, شوية وسألتني هو مجبلكيش سيرة الخطوبة, قلت لها لأ قالت لي دة شكله بيسرح بيك, فانا تنرفزت وزعقت لها ساعتها, ومشيت .

_ بس هيك ؟ تعرفي انه مديحة معاها حق !

تفاجأت من تعليقه هذا,

وفي لحظة أن دخلت الأم عليهما بالشاي, كان يقول لها :

قومي طيب البسي تيابك, بدنا نطلع مشوار .

_ 2 _

طول الطريق كان يضع يدها بين يديه, وينظر إلى عينيها بحنان حتى خرجت من حالتها, وبدأ يرى الابتسامة على شفتيها, ومثل عاشقين وضع ذراعه في ذراعها, وأخذها إلى مطعم فاخر, تناولا الطعام بشهية, ثم أخذا آيس كريم, وبعد أن تأكد من أنها قد عادت علياء التي يعرفها وأنها نسيت الموقف مع مديحة, سألها إن كانت تحب أن يغادرا, فأجابت بالقول, ايوة بكفينا أكل وشرب, دا أنا شوية كل يوم من دة, شهر زمان وأصير كلبوظة هههه .

سألها إن كانت تحب أن تذهب إلى مكان ما, أجابت بالنفي, فقال لها طيب ممكن نروح عند محل المجوهرات ؟

استغربت, وسألته عن السبب, فقال لها بأنه يفكر في أن يشتري شيئا من الذهب .

حين وصلا المحل, سأل البائع عن "دبلتين" لهما, فكاد أن يغمى عليها, وحين حاولت أن تقول له, بأنه ليس من داع ليتأثر بما قالته مديحة, أصر على أنه يريد هذا الأمر فعلا .

عند بائع المجوهرات قام بوضع إصبعها في الدبلة, لكنها قامت بعد لحظة بخلعها وقالت له: كدة أنا جربتها, وأنت جربت دبلتك, لكن لازم تلبسني دبلتي وألبسك دبلتك قصاد ماما .

وكان أن احتفلا معا بحضور الأم ومديحة وصديقه صلاح الدين, مع قالب من التورتة .

_ 3 _

كانت تجلس بحضنه في حديقة الحيوانات حيث اعتادا أن يذهبا أيام الجمع, أحيانا كانت ترافقهما الأم, وقلما ما كان يذهب معهما صلاح أو مديحة, فلم تنجح محاولة الحبيبين في جمع صلاح ومديحة, حتى يمكنهم أن يذهبوا معا في رحلات بعيدة, ذلك أن صلاح لم تعجبه مديحة, وهو

كان أصلا رجلا لا يتورع عن أقامة العلاقات العابرة, وكان صعبا عليه أن يكتفي بعلاقة واحدة تنتهي بالزواج, وفي لحظة أغمضت عينيها, وسرحت بخيالها , ثم سألته :

حبيبي, أنت تحب نجيب كام واد وبنت ؟

أجابها بأن المهم عنده أن يكون المولود الأول صبيا, ثم بعد ذلك, أثنين أو ثلاثة, لا فرق .

اتبعت سؤالها الأول بسؤال ثاني :

طيب وتحب نسميه إيه ؟

أجابها : الولد الأول أسميه أنا, لأنه سيحمل اسمي, وفي قريتنا سينادونني بأبي فلان, أما البنت فسميها أنت .

قالت بدلال: بس أنا حابه اسمي الواد عبد الحليم

رد باستغراب : وليش عبد الحليم

ردت بمكر: عشان يكون أسمه عبد الحليم حافظ .

ضحك من أعماق قلبه, ولم يرد

وإن كان بداخله قد قال: هذا اللي كان ناقصنا, أبني يصير مغني !

لكنه بعد تردد قال لها: الوقت بعده بكير على هالحكي حبيبتي, ولو إنه إحنا ناس بنحب العسكرية والجيش, لأنها مصدر القوة, وصعب نتقبل حدا من أولادنا يطلع ممثل وألا مغني, أو هيك شي .

_ 4 _

مغرمة جدا هي بالقبعات, منذ كانت طفلة صغيرة, كانت تحب أن تضع على رأسها تلك الطاقية التي تشبه طاقية البحارة أو الصيادين البيضاء, كانت تشعر وهي تضع القبعة على رأسها, كما لو كانت ملكة متوجة, وأن القبعة إنما هي التاج الملكي على رأسها, ومع مرور الوقت صارت تحب القبعات المزينة بالورود, والتي تجعل منها واحدة من أميرات العصور الوسطى, وحين سألها عن سر شغفها بوضع القبعة على رأسها, ضحكت وسألته:

مش بتعجبك وألا أيه ؟

قال لها: بلى تعجبني لكني أريد أن اعرف السر وراء حبك لها .

بدلال وبشيء من المراوغة, أجابته :

من لما كنت صغيرة, ولما كنت أروح الفلاحين والدنيا حر, عشان بتحميني من الشمس, أنت مش شايف إن بشرتي بيضاء, وأخاف الشمس الحامية تسمّر بشرتي .

ولما كبرت صارت القبعة تساعدني في أني أراقب الناس من بعيد, من غير ما يحسوا, وأتأمل أي مشهد أمامي بهدوء . كمان بصراحة هي بتعطيني إحساس بالعظمة .

صار من يومها , يحرص على أن يهديها ما تقع يده عليه من قبعات .

_ 5 _

دق شديد على جرس الباب, خرجت مذعورة, وما أن فتحت ورأته أمامها والدموع تملأ عينيه حتى وقع قلبها بين قدميها, بصوت خفيض قالت له : تفضل

هو أصلا كان قد دخل دون أن يقول حتى مساء الخير

سألته: هو فيه ايه

رد عليها قائلا: مصبية عليائي, مصيبة

خرجت أمها مذعورة وسألته بدورها: مالك يابني, ايه اللي حصل

قال وهو يجهش بالبكاء: الرئيس مات

ظنت بأن رئيس سوريا هو الذي مات

فقالت: البقية في حياتك, هو أنت كنت تعرفه, وألا كان قريبك

قال: هو كان اكتر من أبي .

قامت الأم وقالت: أروح اعمل لك كباية شاي تروق دمك

فيما جلست إلى جواره علية, ومسكت يده تواسيه, إلى أن قال لها:

تيجي معي لنشارك في التشييع

دهشت وقالت: حنسافر سوريا سوا, وكدة بسرعة

رد قائلا: سوريا لشو ؟ هون بالقاهرة

باستغراب سألته مجددا: هو مين اللي مات

قال وهو يضرب رأسه بكفه: الرئيس جمال عبد الناصر .

فتحت التلفزيون بسرعة, فرأت رجلا أسمر البشرة أجعد الشعر, عرفته بعد ذلك جيدا, وصارت تتابع أخباره باستمرار, ومن ثم أحبت زوجته جدا, يقول :

فقدت الجمهورية العربية المتحدة وفقدت الأمة العربية وفقدت الإنسانية كلها رجلا من أغلى الرجال, وأشجع الرجال, واخلص الرجال هو الرئيس جمال عبد الناصر الذي جاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع من مساء اليوم 27 رجب سنة 1390 للهجرة الموافق 28 سبتمبر 1970 .

لم يحتمل أكثر فقام بإغلاق التلفزيون, ولم ينتظر كوب شاي الأم, فخرج .

_ 6 _

بقدر ما كانت تشعر بالخوف والتوجس من السياسة, بقدر ما كانت تشعر بالزهو تجاه كل ما هو عسكري, وفي مقاعد الدراسة الابتدائية والإعدادية, وحين كانت تقرأ عن تاريخ مصر, كانت تلاحظ بأن العصر الملكي كان مليئا بالدسائس والمؤامرات, ما بين الانجليز المحتلين وداخل القصر حيث كيد النساء, ومغامرات الملك وصراع الباشاوات, إلى أن جاء الضباط الأحرار, وحرروا الفلاحين من قهر الإنجليز وظلم الباشاوات, فكانت ثورة 23 يوليو, انطلاقة لمصر, وهي عاشت طفولتها في ظل هذه الثورة, التي لولاها لما عرفت مقاعد التعليم, ولما وصلت إلى كلية الطب أصلا, وفي قرارة نفسها, ومع مرور الوقت باتت تدرك بأن سر حبها لحافظ قد يعود إلى كونه عسكري يشبه واحدا من ضباط مصر الأحرار, وكثيرا ما كانت تطلب منه أن يرتدي زيه العسكري, حين يخرجان معا, لتشعر معه بالأمان وبالزهو, فلا يفكر أحد, لا من أهل الحارة ولا غيرهم, بأن يمس لها طرفا, إلى أن كان موعد تخرج الحبيب من الكلية الحربية .

أنستها فرحة التخرج, وتلك الصورة التي جمعتها به وهو بزيه العسكري, أنه بعد أيام سيعود إلى بلده, وأنها ستفارقه ولو إلى حين, كما أنها عاشت أياما بعد ذلك ولا في الأحلام, حيث واظب على الخروج معها كل ليلة, طوال أكثر من أسبوع, قبل سفره, كانت كفيلة بأن تشحنها بمخزون من السعادة يكفيها عدة أعوام قادمة من لوعة الفراق والحرمان من رؤية الحبيب, وحتى من سماع أخباره التي ما جاءت إليها إلا لماما, وبشكل مقتضب ومتواتر.

الفصل الثاني

(1971 _ 1977)

_ هو _

_ 1 _

لم تكن وفاة عبد الناصر وحدها ما تلا أيلول الأسود من كوارث, حيث جرت الحرب بين قوات الملك حسين والفدائيين الفلسطينيين, وصولا إلى أحراش جرش, وإصرار الملك الأردني على تصفية الوجود الفلسطيني المسلح في الأردن, رغم انعقاد القمة العربية في القاهرة, وتنظيم الوجود المسلح الفلسطيني, وحصره في الأغوار, أي لهدف محاربة إسرائيل, ونزع حجة الملك بأن ذلك الوجود أنما يستهدف حكمه في عمان, وبالتالي فشل عبد الناصر في حماية المقاومة الفلسطينية من بطش الملك حسين الذي أصر على استمرار الحرب وطرد المقاومة الفلسطينية حتى من أغوار الأردن ليكفي إسرائيل شر قتالهم , حيث أن تداعيات تلك المواجهة وصلت إلى مربع الحكم في سوريا, حين نشأ الخلاف بين صلاح جديد وحافظ الأسد الصديقين والرجلين اللذين يحكمان سوريا منذ 23 شباط عام 1966, من وراء ستار الواجهة السياسية, على خلفية إرسال جديد قوات من الجيش العربي السوري لدعم الفلسطينيين, فيما امتنع وزير الدفاع حافظ الأسد عن تقديم التغطية الجوية للقوات البرية السورية, ومواجهة الطيران الأسرائيلي, الذي تدخل بدوره إلى جانب النظام الأردني !

ثم احتدم الصراع بينهما حين قررت القيادة القطرية لحزب البعث الذي كان يسيطر عليه صلاح جديد بإقالة حافظ الأسد ورئيس الأركان مصطفى طلاس من منصبيهما, حينها رد حافظ الأسد

بالانقلاب على صلاح جديد ومن ثم سجنه هو ورئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي, وذلك يوم 16 تشرين ثاني 1970 .

شعر في داخله بانكسار وغضب شديد, قال في نفسه: أيلول عام 1970, أسوأ بكثير من نكسة حزيران 1967, فحين تكون الحرب بين العرب وإسرائيل, أيا تكون نتيجتها فهي في الاتجاه الصحيح, أما أن تصبح الحرب بين عربي وعربي آخر, مهما كانت الأسباب والمبررات فهي كارثة بكل معنى الكلمة, إن أيلول أسود ونذير شؤم ليس على المقاومة الفلسطينية وحسب, بل على كل عربي حقيقي, ألم يكن ذلك الأيلول الحقير سببا في وفاة عبد الناصر, وفي إغلاق جبهة الى أكثر من ثلاثمائة كيلو متر حدود برية مع إسرائيل؟ لذا فمن الطبيعي أن ينتقل وباء الكارثة إلى سوريا فيدب الصراع بين الأصدقاء والرفاق وحتى بين الأشقاء.

من لا يعرف ما كان بين صلاح جديد وحافظ الأسد, قد لا يدرك معنى أن يتصارع الرجلان على الحكم والسلطة, ثم الأسوأ من كل ذلك أن يذهب مؤسس حزب البعث نفسه, ميشيل عفلق ضحية لذلك الصراع, كنا نأخذ على بعث العراق أن البعث السوري هو البعث الحقيقي حيث أن مؤسسه عفلق على رأس القيادة القومية للحزب, فما معنى أن يتعرض الحزب نفسه إلى انقلاب عسكري, ثم يقال عنه ثورة تصحيح .

هو في حقيقة الأمر لم يشعر بأنه منحاز لطرف ضد الآخر, لكن التساؤلات ملأت رأسه, حين تابع كل تلك الأحداث, التي أرجعها إلى ما حدث أولا في 5 حزيران حين بدأ الخلاف بين الأسد وجديد على خلفية إعلان وزير الدفاع سقوط القنيطرة والانسحاب من الجولان, ثم ما حدث على خليفة عدم دعم الأسد للقوات البرية التي أرسلها صلاح جديد لمساندة المقاومة الفلسطينية في أيلول بالقوة الجوية . أي أن الخلاف بين الصديقين نجم عن واقعتي الشؤم, نكسة حزيران وأيلول الأسود .

بقي أياما منذ عودته من مصر, منكفئا على ذاته, إلى أن جاء إليه أبن ضيعته, وكان ضابطا عسكريا برتبة نقيب, وأخبره بأن هناك تشكيلا عسكريا يتم تشكيله على أساس حزبي, مهمته هي الدفاع عن الوطن وحماية الثورة, وأخبره بأن هذا التشكيل يقوده واحد من أهم رجالات الدولة, وأن له مستقبلا باهرا حيث سيكون عصب النظام والعمود الفقري للدولة, وعرض عليه حزبيا أولا ثم عسكريا ثانيا, أن ينضم للجهاز الجديد, فيؤمن بذلك مستقبله .

لم يفكر بالأمر كثيرا, بل وافق بسرعة, وكان أن أنضم للجهاز الذي عرفته الناس لاحقا باسم سرايا الدفاع, وهكذا بدأت حياته العملية, من أوسع الأبواب كما أعتقد.

_ هي _

_ 1 _

التلفزيون مفتوح أمامها, تتابع الفيلم كما لو كانت هي بطلته, دخلت الشاشة, وما أن رن الهاتف حتى كانت تقفز للسماعة, فتضع السماعة على أذنها, وقبل أن تسمع الصوت, كانت تقول :

ايوة حبيبي, وحشتني موت, انت فين, مش حتيجي بقى؟

يا دي الواجب, هو مفيش حد بيحارب غيرك ؟

عارفة حبيبي, متزعلش مني, ما هو انت بطل العرب كلهم, وعارفة من أيام ما كنت تحكي لي عن صلاح الدين, ما ينفعش سوريا تحارب وحدها أو مصر تحارب وحدها, يا يحاربوا سوا مع بعض, يا يعملوا سلام مع بعض, مش كنت مرات انا‌ديلك حبيبي يا صلاح الدين, وكنت بهزر معاك وأقول لك يا أيوبي, وهو أنا حبيتك ليه, مش عشان أنا وأنت نوحد مصر وسوريا, ونشوف ولادنا بيعيدوا الوحدة ما بينهم .

بقولك إيه, انت عايز تتعشى أيه النهاردة ؟

محشي, من عيني حبيبي, إيه ؟ اسيبك شوية دلوقت, حاضر حبيبي .

ثم تقفل السماعة, على صدى الوهم, الذي سمعته للتو .

_ 2 _

قبل ساعات من لحظة تخرجها, تذكرت كل تلك اللحظات المشابهة, حين انتهت من المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية, حيث كانت دائما تفوز بلقب الطالبة المثالية, غدا, ستكون أيضا الخريجة المثالية, ومن يدري ربما طبيبة الأطفال الأولى بعد وقت, كما فازت بلقب مس أيجبت وهي ما تزال طالبة جامعية, زغرد ما بداخلها, نظرت في المرآة فرأت ملكة متوجة, ضحكت وقالت, لم يبق علي سوى أن أكون السيدة الأولى, وهنا السيدة الأولى هي بمثابة الملكة, فزوجة الرئيس تحمل هذا اللقب مدى الحياة, فرؤساؤنا ما هم إلا ملوك في حقيقة الأمر وجوهره .

تمنت لو أنه كان برفقتها في هذا اليوم الفاصل في حياتها العملية, كانت ستفاخر به الجميع, من أساتذة الجامعة, إلى زملائها وحتى الحضور من أقارب الخريجين, كانوا جميعا سيفتحون أفواههم من الدهشة, ويقولون هما يليقان احدهما بالآخر, وحقا هذه الفتاة المتميزة لا يمكنها أن ترتبط إلا برجل مهم .

_ 3 _

كانت كلما خرجا معا, لا تكف عن توجيه الأسئلة, حبيبي انت بتحب تسافر, فيرد قائلا: لا مو كتير, تكتئب, ثم تسأل: ليه مش بتحب تسافر ؟ يرد: ما بحب أضيع وقت أنا, تسأل طيب مش

بتمل, حينها يشعر بأنها قد "زودتها" فلا يرد, بعد برهة تسأله حول موضوع آخر, هو احنا حنشتري عربية, يرد بالقول: أكيد, طيب وتفضل ماركتها: أيه , يقول: ياباني, طيب وتحب لونها, يكون أيه, لا يرد, تصمت عدة دقائق, ثم تواصل هجوم الأسئلة, هو احنا حنسافر من مصر لسوريا بالبر ؟ يقول دون حماس: إن شاء الله , طيب ومش حتتعب من السواقة ؟ يرد: الله بيعين ساعتها, تقول, أنا ممكن أتعلم السواقة وأساعدك , يقول: ايه فكرة .

تواصل قائلة: هو بيتنا حيكون شقة وألا فيلا . يرد قائلا: حسب وين بنكون, طيب والعفش حيكون شكله أيه , يقول : على ذوقك انت .

يكونان معا فيراها فراشة لا تطأ قدماها الأرض, ولأنها دائما ما تحدثه عن أحلامهما معا, قال لها مرة, تعرفي بافكر أغير اسمك .

ليه بقى هو مش عاجبك . طيب وتحب تسميني ايه .

يضحك باقتضاب, مش انا اللي اسميك, انت سميت حالك

باستغراب مندهشة تسأل : انا ؟ وسميت حالي ايه بقى

باختصار يقول : أحلام ,, حبيبتي انت شخصية حالمة كتير, أحلامك ملهاش حدود, مو هيك وبس, انت عايشة في الهواء, لو كنت مؤلف كنت عملت كتاب عنك وأسميته " أحلام الست علية"

حين قرأت الخبر بأن حافظ الأسد صار رئيسا لسوريا, تذكرت هذا الموقف مع خطيبها حافظ السوري, فأكملت الحوار الذي كان بينهما معيدة إليه السؤال:

ايه رايك يكون اسمه أحلام السيدة الأولى ..

_ هو _

كانت الدورة التدريبية, عقائدية أكثر منها عسكرية, كذلك تخللتها معرفة أمنية, فهم وهو الحزبي والخريج العسكري, بأن تدريبهم على كيفية الحصول على المعلومات واختيار المهم منها, ثم توصيلها للمستوى الوظيفي الأعلى, له علاقة بطبيعة الجهاز, فهو على أي حال سيعمل بين صفوف المواطنين, داخل الدولة والمجتمع السوري, وليس على الجبهة الحدودية مع العدو الخارجي, وبهذا فإن الجهاز ليس وحدة أو قطعة عسكرية تماما, وإن كان تنظيم الجهاز ذا طابع عسكري من حيث الانضباط والتراتب وفق السلم العسكري,هو تقريبا بين قوات الشرطة المدنية, وجهاز المخابرات العامة, لكن المعرفة العقائدية التي تم حشرها في مساق الدورة, من الواضح أنها لم تكن ارتباطا بالحزب, فلم يكن شرطا تاما أن يكون كل المنتسبين من أعضاء

حزب البعث, كذلك يمكن لأعضاء الحزب من المنتسبين للجهاز, أن ينهلوا ما يشاءوا من معرفة حزبية عبر عضويتهم في الحزب .

وما أكد له هذا الاعتقاد هو أن المادة العقائدية كانت تركز على القائد أكثر من الحزب, وعلى الولاء للدولة أكثر من الولاء للوطن, أدرك حينها, بأن ذيول الخلافات الداخلية ما زالت تطل برأسها, أو أن سوريا بعد ثورة التصحيح تسير على طريق الحسم الداخلي, حيث لا بد من ترسيخ الاستقرار الداخلي حتى يمكن للبلد أن يواجه العدو الأسرائيلي .

_ هي _

كان يومها الأول في المستشفى يشبه يوم العيد, فهي التي طالما حلمت بالمريول الأبيض, ارتدته وصارت لا تجلس في مكان, تجوب طرقات المستشفى الداخلية, لتحقق أمرين معا, الأول هو أن تستكشف المكان الذي سيكون بمثابة بيتها الثاني, الذي ستقضي فيه معظم ساعات أيامها القادمة, والثاني هو أن تسير بخيلاء في ذلك الثوب الأبيض . كانت تضع يديها في جيوب المريول وتقفز كما لو كانت فراشة, أو ملاكا أبيض, ضحكت حين تذكرت الناس يقولون عن الأطباء والممرضين, الملائكة البيضاء .

منذ اليوم الأول, تم فرزها بالطبع لطاقم قسم الأطفال, حيث كان رئيس القسم طبيبا ما زال شابا, رغم انه قد تجاوز الأربعين, فيما كان القسم يضم أطباء وطبيبات , كذلك ممرضين وممرضات كثر, وكانت الأروقة تضج بالأمهات اللواتي يحملن بين أيديهن أطفالهن من المرضى والمراجعين. دخلت القسم بهمة ونشاط, وكان رئيس القسم قد وصله ملفها, وقرأ بياناتها وعرف أنها كانت متفوقة في الجامعة, وأنها فتاة نشطيه ومثالية, لذا فقد أرتاح جدا لانضمامها إلى طاقمه الطبي, وعوّل كثيرا عليها, في بث الحيوية والنشاط في القسم, الذي بحكم الضغط الواقع عليه, عادة ما يجيء الأطباء إليه بهمة ونشاط, ثم بعد وقت يدب فيهم اليأس, بحكم كثرة العمل وتدني المرتب الحكومي, فيصير همهم هو أن يقوموا بافتتاح عياداتهم الخاصة, ليؤمنوا مستقبلهم .

_ هو _

كانت تلك أول مرة يرى فيها السيد الرئيس, حين قام سيادته برعاية حفل تخرج الدورة, أستقبله الضباط والجنود بالهتاف المعروف :

إلى الأبد إلى الأبد يا حافظ الأسد

سمع الهتاف كما لو أنه كان يسمعه لأول مرة

فأستغرب من ذلك الذي كان قد أبتكره ولم يخطر بباله بأن الرجل أنما هو كائن حي, مثلنا, لابد أن يموت يوما ما, فكيف يكون للأبد .

أدرك يومها بأن الحظ قد ساقه لينتسب إلى جهاز أمني مهم, بل ستكون له مكانة عظيمة, يدل على ذلك أن الرئيس شخصيا, جاء بنفسه ليشهد ذلك الحدث العظيم, بإطلاق ذلك الجهاز .

تحسس البوريه على رأسه, تذّكر علياءه, وضحك في سره, وخطر بباله بأنه لو كان متوهما مثلها, لرأى نفسه رئيسا, وكما لو كان هذا الشيء الذي على رأسه تاجا ملكيا .

بعد أن انتهى اللقاء, داهمت رأسه الأسئلة والتساؤلات, عن الفرق بين الملك والرئيس في بلادنا, وتساءل لماذا لم يعد الملوك هنا يضعون التاج على رؤوسهم, أهو تواضع أم لأن الرؤساء باتوا مثلهم, فتعففوا عنه ؟ !

نعم هنا لا فرق, الكل مستبد, الملك والرئيس, السلطان والأمير وحتى شيخ العشيرة ورب الأسرة والمدير في العمل, كل رجال الشرق العربي أباطرة, قال في نفسه لو أني كنت مؤلفا أو مفكرا لكتبت كتابا أزلزل فيه الدنيا عن "أباطرة الشرق" وأبدأ من هنا .

لأول مرة يشعر بأنه لا يحب أسمه, حتى قال في نفسه لو كان الأمر بيدي لقمت بتغييره, مع أنه كان واحدا من أشياء عديدة, فتحت له بعض الأبواب المواربة, مثل مسقط رأسه, وجعلت منه محل ثقة الرؤساء والمسئولين .

ـ هي ـ

بضعة أسابيع قليلة, وكانت همتها تجاه العمل تفتر, فسرعان ما وجدت نفسها في دوامة العمل الروتيني, ثم وجها لوجه أمام مظاهر البيروقراطية الوظيفية التي كثيرا ما تودي بحياة الأبرياء, فكيف لو كان هؤلاء الأبرياء أطفالا, مثل الملائكة. بين "ستف الأطباء والممرضين" زملائها, كانت هناك حروب صغيرة تافهة, لا تجعل من العمل الذي فيه رحمة للناس, مجرد عمل بلا روح ولا قلب, فقط , بل تحيل كل الأجواء إلى حقل ألغام, هي لا تحبها, فهذه الطبيبة "حاطة" عينها على رئيس القسم, ولا تتورع عن تقديم كل الإغراءات له, من أجل أن تظفر به, وتلك الممرضة, تحوم حول ذلك الطبيب المتخرج حديثا, وذاك الطبيب, على علاقة سرية مع تلك الممرضة, وبين الطبيبات مكائد النساء, وبين الممرضات مكر وخبث, لدرجة أن أحداهن لا تتورع عن منح أمٍ دواءَ خاطئا يمكن أن يقضي على حياة طفلها من أجل أن توقع زميلة لها تنافسها على منصب رئيس الممرضات, أو على قلب طبيب أو ممرض زميل. وهي شخصيا, لم تسلم من محاولات التحرش العاطفي وحتى الجنسي, من قبل أكثر من زميل, بل أن رئيس القسم نفسه, تودد لها وعاملها برقة واحترام منذ اليوم الأول, وهي اعتقدت بأن ذلك يعود لتقديره كفاءتها, إلى أن جاء يوم تقدم لها فيه بباقة ورد, ثم دعاها إلى شرب الشاي في مكان خارج العمل, وحين لبت الدعوة, فوجئت به يعلن لها عن إعجابه الشخصي بجمالها وأنوثتها, وأنه

يعرض عليها علاقة على الطريقة الغربية, وحين صدّته باحترام حيث قالت له ببساطة بأنها مخطوبة, تغيرت في اليوم التالي معاملته لها, لذا فقد بدأت تفكر في افتتاح عيادتها الخاصة إلى جانب العمل في المستشفى .

_ هو _

تمت دعوته إلى جانب زملائه بمناسبة تخرج الدورة, إلى حفلة فنية, عرف من خلالها ما هي عليه الشام من بهاء وعز, خاصة لمن هم في السلطة, ومرت الأعوام لاحقا ليدرك بأن القوة والسلطة تتحول شيئا فشيئا من يد الحزب والجيش إلى يد أجهزة حفظ النظام المقربة من القصر الجمهوري, وتوالت الأيام, على هذا المنوال, حفلات بالليل, وانتشار يومي في شوارع وأزقة العاصمة للبحث عمن يهمس بكلمة معارضة, وكثيرا ما كان يدور بسيارته مع نفر من الأفراد الذين هم تحت إمرته, في الأسواق, ليرى من لا يضع صورة السيد الرئيس في دكانه, فيقوم بتوبيخه, وشد أذنه, فتحصين الجبهة الداخلية كان عبارة عن جملة من التفتيش عن تفاصيل, وعن أية ملاحظة حتى لو كانت طفيفة, تدل على أن هناك أحدا ما لا يبدي الحماس الكافي للسيد الرئيس .

يعود إلى البيت في وقت متأخر من الليل عادة, فينام فورا, وفي الصباح, يشرب فنجان قهوته, فيدور بخلده, بأن أفراد الجهاز باتوا كما لو كانوا كلابا تجوب الشوارع طوال النهار والليل, تبحث عن صيد ما, حتى لو كان عظمة ناشفة, مثل "كلاب السكك", ثم مع الأيام أعتاد الوحدة ونسي أنه يقضي أيامه في حركة لا يدري إلى ماذا ستنتهي, وأنه بات من الصعب عليه, أن يفكر مثل الآخرين ببيت وزوجة, فحتى الضيعة بات لا يزورها إلا لماما, فقد أخذته الشام وعزها بين تلابيبها, كما لو كانت شبكة عنكبوت, لا يستطيع الفكاك من خيوطها, لذا فقد غاص شيئا فشيئا, مثل الكثيرين من رفاقه, في عالم المجون, الذي ظن في البداية أنه يحدث في أماكن يمكن له أن يجد فيها صيدا, لكنهم هم الذين بلغوهم عبر التعليمات والأوامر بأن يرتادوا البارات والملاهي الليلية, فبعض رواد البارات والملاهي منهم من هو "مثقف معارض" يذهب ليشرب حتى ينسى انفعاله وغضبه من الواقع الذي يرفضه .

_ هي _

_ 1 _

دق جرس الباب, حين فتحت فوجئت بأخيها, ومعه ذلك الشاب الوسيم, الذي طالما تودد لها وسار وراءها في الشارع حتى انه جاء إليها العيادة أكثر من مرة, رغبت لوهلة أن تغلق الباب في وجهيهما, لكن أخاها دفع الباب ودخل وقال لمرافقة : تفضل يا باش مهندس .

سبقتهما هي إلى الداخل, وحيث أن أخاها يعرف الطريق إلى الصالون جيدا, أشار بيده لضيفه, فسارا معا حيث جلسا على أريكتين متجاورتين, في اللحظة التي كان فيها أخوها ينادي بأعلى صوته : القهوة مزبوطة يا دكتورة .

هي تعرف الهدف من هذه الزيارة جيدا, لذا فإن الغضب ينتابها, فكرت للحظة أن تضع ملحا بدلا من السكر في القهوة, لكنها تراجعت, وما هي إلا لحظات, حتى كانت تحمل صينية القهوة, وتذهب إليهما, وما أن جلست على أريكة مقابلة لهما, حتى بادرها أخوها قائلا :

الباش مهندس, دخل من الباب, وأنا أعرفه وسألت عنه, وعن عيلته , كويس زي عادة الناس, راجل تمام وميتعيبش, انت دكتورة وهو مهندس, انت مش محتاجة وهو مقتدر, والراجل طالب القرب وعلى سنة الله ورسوله في الحلال, هه قلت إيه ؟

أأقول أيه يا خويا, هي أيه الحكاية, هو ينفع واحد يخطب ست متجوزة ؟

أندهش الضيف وقال مستغربا : متجوزة .

ثم هبّ واقفا, كمن لدغته أفعى, وخاطب أخاها قائلا : يلا بينا يا أسطة .

_ هو _

_ 1 _

في حقيقة الأمر, قرأ وسمع الكثير من قصص الحب, كما أنه عرف معظم بنات قريته, ومنهن من عرضت عليه حبها, لكن بمثل هذه البنت العلية, لم يسمع ولم يقرأ, كان في داخله يستغرب من حجم تعلق هذه الفتاة به, وحين يفكر في الأمر, يقول بأن نشأتها الريفية, كذلك وحدتها وطبيعتها الرقيقة والرومانسية هي ما تجعلها تحبه وتتعلق به كل هذا الحب وكل هذا التعلق .

هم هيك المصريين, عندهم حس انطوائي, أو قابلية للاكتفاء الذاتي, يبدو أنه من أيام الفراعنة, ومصر بلد داخلي, رغم أنها مطلة على المتوسط, إلا أنها, ليست مثل لبنان أو سوريا, لم يسجل التاريخ أن المصريين, صنعوا المراكب وجابوا البحار تواصلا مع العالم الخارجي, ليسوا حتى مثل العمانيين, أو البرتغاليين, المهم أن اكتفاءهم هذا, جعلهم يرون في عاصمتهم "القاهرة" أما للدنيا, يعني يكفي لأي مصري, صعيديا كان أم شرقاويا, منوفيا أم حتى اسكندرانيا, أن يذهب للقاهرة, فلا يكون بحاجة إلى أن يسافر لأي بلد في الدنيا. على حدود القاهرة, تقف عتبة الكون, ولذا فإنهم حين يحبون شخصا غير مصري, ويرون فيه الذكاء أو الموهبة فأنهم يصرون على أن له "أصلا" مصريا, ربما خال أو قريب, ثم حتى يختصروا كل شيء, فأنهم يرون في بلادنا

العربية, كما لو كانت محافظات مصرية, فكما يسمون هذا منوفيا, وذاك شرقاويا, أطلقوا عليه اسم حافظ السوري .

لا أنكر مطلقا أنني أحببت تلك الفتاة المصرية, بل إنها كانت حبي الأول, أنا أبن تلك الضيعة الساحلية, الذي لم ير في حياته من النساء سوى فتيات القرية ونساءها, ذوات الأكف الخشنة, التي هي دون أدنى شك أخشن من يدي, ذوات الألسنة المقلقلة, التي تحدث صخبا في الهواء من حولك حين يتحدثن, وحيث أن طموحي كان بلا حدود, فكنت أتخيل زوجتي واحدة من أهل المدينة, أو حتى العاصمة, سيدة راقية, تتحدث بلهجة مدنية, وذات أصابع ناعمة, لا اخدش شفتي حين أقبلها, كان أبعد من خيالي أن أتزوج من فتاة من أم الدنيا, عاصمة الكون بأسره, فمثل تلك الفتاة القاهرية, لا تليق إلا بملك .

أحببتها بلا حدود أو قيود, رغم عادات أهلها المختلفة عن عاداتنا, وإن كانت شبه وحيدة, فهي تعيش مع أمها فقط, في حين أخوتها, كل في مكان, وكنت صادقا حين قلت لها, بأني مجرد أن أستلم الوظيفة, وهي مضمونة على أي حال, أي بعد أن أسافر بأشهر قليلة سأكون قد أثثت البيت, ورتبت كل شيء, فأجيء لك, وتكونين قد تخرجت أنت أيضا, نكتب الكتاب, ونقيم العرس والدخلة, ثم نسافر معا . كنت أظن أني سأنخرط في صفوف الجيش, ولم يخطر ببالي أني سأكون ضابطا في جهاز أمن, مهمته مختلفة, وطريق من ينتمي إليه أيضا مختلفة .

باختصار هو يراها زوجة مناسبة, لكن قراره الأخير منوط بأكثر من عامل, عليه أن يرى مسار طريقه في الصعود إلى أعلى الرتب العسكرية, عليه أن لا يدع أي شيء يعرقل مسيرته, كذلك لابد أن يرضي أباه وأمه, لذا فقد قرر أن يتأنى وأن لا يتسرع في اتخاذ قراراه النهائي, ثم بعد أن يستقر تماما ويكوّن لنفسه رصيدا وظيفيا وماليا واستقرارا في المكان, ثم يرى كيف ستجري أموره العسكرية, وإن كانت الأمور ستتوافق مع زواجه من عليّة, فهي على أي حال مستعدة للانتظار طويلا, فإن قرر الزواج منها أخيرا, سيسافر إليها, ثم يعود بها إلى بلده .

الصدفة أو هو القدر الذي وقف في طريقنا, وحال دون أن يتم الأمر على هذا النحو, فما إن توظفت, حتى وجدتني يوما في مكتب "المعلم" وإذ بفتاة, تشبه الطاووس, في مكتبه, استغربت الأمر, فمكاتب الضباط جافة وجدية, ولا مكان للجنس اللطيف فيها, وما إن أديت التحية, حتى طلب مني الجلوس, فوجدتني مقابل الفتاة, وما إن نظرت إلى عينيها, حتى اعتراني الخجل, على عكسها هي, التي رمقتني بنظرة متفحصة, هادئة وواثقة. شرح لي المعلم المطلوب, ثم غادرت, بعد أن أديت التحية, لم تغادر مخيلتي صورة الفتاة, حيث كنت أتساءل عن سر وجودها في مكتب القائد .

كانت أكثر العرب سعادة وفرحا وهي تتابع أخبار اختراق خط بارليف, صارت ترقص طربا, فقد كانت سعادتها مركبة, من جهة ككل المصريين والعرب, تشهد أول نصر حقيقي خلال القرن العشرين لمصر والعرب, وتتابع سجل بطولات الجيش المصري, وها هي تحس بسعادة حبيبتها جيجي وهي تتخيلها في الوقت الذي يلقي فيه الرئيس أنور السادات خطاب النصر, ويزف إلى المصريين والعرب جميعا, بشرى النصر العظيم, ومن جهة أخرى, لأن الحرب كانت سوريا نصفها الثاني شريكا لمصر بالذات فيها, أية سعادة يمكن أن تفوق هذه السعادة حين تكون مصرية وسورية في نفس الوقت, بل وأن تشارك قدوتها وتوأم روحها وسيدتها المفضلة جيجي, نصرا حققه الزوجان معا حين وضعا أيديهما في أيدي بعض .

_ هو _

_ 1 _

كان ككل الضباط في الجيش العربي السوري, مقتنعا بأن جيشه أنما هو جيش عقائدي, حزبي, لكنه في نفس الوقت محترف, أي أنه جهة تنفيذية, عليه أن يقوم بتنفيذ الأوامر دون أي نقاش, وكان مقتنعا تماما, بأن سوريا هي قلعة العروبة, وأن ثورة التصحيح يجب أن تتمكن من الحكم, وهي بحاجة إلى أن تغلق كل الشقوق, وأن تحسم كل الخلافات والصراعات التي واكبت وصول السيد الرئيس, أمين عام الحزب إلى موقع المسؤولية.

وكان في الحقيقة يرى في السيد الرئيس صلاح دين جديد, يرى فيه قائد الأمة العربية كلها, وليس قائد سوريا فقط , وأنه من أجل السيد الرئيس يمكنه أن يضحي بروحه وبكل مستقبله, بل بكل غال وثمين, أمه وأبيه وأخوته وكل الناس فداء للسيد الرئيس, وكان حين تكون هناك مناسبة ما, يهتف بأعلى صوته ومن أعماق قلبه : بالروح بالدم نفديك يا حافظ .

حافظ أسد رمز الأمة العربية

إلى الأبد إلى الأبد

يا حافظ الأسد

كيف لا, وقد صار منذ اليوم بطل التشرينين, تشرين التصحيح وتشرين التحرير, من كان يصدق بأن العرب يمكنهم حين تتوحد مصر وسوريا في ساحة القتال, أن يحققوا النصر أخيرا على إسرائيل, يا لها من أيام عز لا تنسى, أين منها أيام اليرموك وحطين وعين جالوت !

_ 2 _

أمام المرأة, ينظر الضابط إلى رتبته العسكرية, إلى النجوم التي على أكتافه, فيتذكر علية (يراها كما لو كانت ظلا وراءه, تساعده على ارتداء بدلته العسكرية) .

هو أنت حبيبي حتشتغل إيه: ضحك من أعماقه وقال: حرامي, واحد متخرج ضابط يعني بالك راح يشتغل شو ؟ ميكانيكي سيارات ؟

حبيبي عارفة انك ضابط قد الدنيا, لكن يعني وظيفتك حتكون أيه ؟

اها مين عارف عليتي, طبعا أول ما أتعين ممكن أكون مساعد قائد سرية, مسئول مجموعة, المهم الترقيات, ادعي لي انت ربك يسهلها علي, واطلع لفوق لما أصير ,,, رئيس . يقول هذا وهو يكاد يبكي من شدة الضحك .

تصدق وتسأل بسذاجة, بجد حبيبي, انت بتقول إيه, تبقى ريس ؟

يواصل مزاحه معها: اها, مين عارف, كم سنة ويا إما القصر الجمهوري, يا إما البدلة الحمراء, قولي لي, يعني لو كنت حرم الرئيس, تعملي إيه .

فجأة تجلس على الكنبة, بجدية, كمن تمثل دور السيدة الأولى, تكوّر يدها كما لو كانت تحمل مايكروفون وتقول: مالك يا أنور, شايفاك مهموم, شايل هموم الدنيا على كتافك .

يسألها, هو انت بجد حبيبتي, بتحبي جيهان ؟

ترد عليه دون تردد: أوي أوي, دي هي اللي بتدير الدولة, مش هم بيقولوا وراء كل راجل عظيم امرأة عظيمة ؟ أنا شايفة انه هي اللي خططت لحرب أكتوبر, وهي علشان أمها أجنبية, شارت على الريس يروح القدس, ويعمل سلام, ويكون على كدة بطل حرب وبطل سلام .

يرد عليها مستغربا: يا سلام

بسذاجة تؤكد قائلة: والله, صدقني, أنا عارفة كل حاجة, جيجي دي مفيش منها, دي تجنن . مش بس حلوة , ومخها يوزن بلد, لو كانوا المصريين يقدّروا, كان عملوا لها تماثيل في كل حتة . تلسعه السيجارة في يده, بعد ان نسيها لحظة, فيصحو من غفوته, ويقوم بأطفائها .

_ 3 _

حينما تخطر بباله تلك الفتاة التي أحبها من أعماق قلبه, لا يرى سوى فراشة ناعمة, هي تشبه الفراشة في كل شيء, حتى يكاد يراها أحيانا تطير . تحب الفساتين البيضاء المزركشة,

والملابس الملونة, ولا تحب من الألوان سوى الفاتحة والزاهية منها, الوردي, الأزرق السماوي, الفوشي, الأبيض, النهدي .

ولأنها تعشق جيهان السادات, فتكاد تشبها في طريقة كلامها, في مشيتها, تحتفظ لها بكل ما وقعت عليه يدها من صور, خاصة وهي في مثل عمرها, كما أنها تحب جدا أن تعتمر قبعات القش, خاصة في الصيف, وبالذات حين تذهب للبحر .

حين أراها بملابس البحر, تلف جسدها بشال أزرق شفاف, ترتدي قبعة القش, يخيل لي أني أحب فتاة فرنسية, خرجت لي من أحد قصور الإقطاع عن دوقة شابة, أو أميرة من أميرات العصور الوسطى, فأتخيل أن اسمها جولييت, تقول لي احبك يا روميو .

حين اتصلت بها هاتفيا, شعرت بأن أسلاك الهاتف تكاد ترقص من الفرحة, صمتت برهة, ثم قالت : حبيبي انت فين ؟

في القصر الجمهوري, أجبت .

بجد, ألف ألف مبروك حبيبي, بسرعة كدة, تحققت امنياتك ؟ امال مبعتليش ليه ؟

قليل من الوقت وأجي أنا إليك, أصبري قليلا, قليلا فقط, حالما, أجهز عشنا, وأجهز نفسي, ثم اجيء لك بكل مستلزمات العرس, لا تقلقي, المهم انت شدي حيلك, وتشجعي وانتظريني .

_ هي _

_ 1 _

كانت كلما رأت السيدة جيهان السادات في التلفزيون أو حتى رأت صورتها في جريدة, تقوم بقراءة كل النص المرافق للصورة, وتشاهد الفيلم باهتمام بالغ, حتى أنها مع مرور الوقت, كانت تعرف كل تفاصيل حياة وشخصية سيدة مصر الأولى, وفي مرة كانت تشاهدها في مقابلة خاصة بالتلفزيون وصادف أنها كانت تقف أمام المرآة, فنظرت لوجهها ونظرت لوجه السيدة الأولى, رأت شبها كبيرا بينهما, وإن كانت السيدة جيهان تكبرها قليلا في السن .

من يومها صارت ترفع شعرها, حتى أنها قامت بقص شعرها الذي كان عبارة عن جديلتين ذهبيتين, ليصبح تماما مثل شعر جيهان السادات .

منذ ذلك اليوم, قامت بتكبير صورة تجمع سيدة مصر الأولى بالرئيس أنور السادات وهما في يوم الزفاف وبروزتها ثم علقتها في صدر غرفة نومها, إلى جانب صورة عبد الحليم حافظ, وصورتها مع زوجها يوم قام بتلبيسها الشبكة .

ثم صارت كلما سمعت عن نية السيدة حرم الرئيس القيام بعمل خيري, أو افتتاح مشروع ما, تبذل جهدها حتى تذهب وتكون بين جموع الناس الذين يتحلّقون حول السيدة الأولى, وكم كانت فرحتها عظيمة حين حظيت يوما في أن يلتقط لها المصور المرافق للسيدة جيهان صورة لهما معا .

ثم حفظت عن ظهر قلب مشيتها وضحكتها, وطريقة كلامها, كما صارت ترى أنها سيدة أولى, ولكنها ليست لمصر بالطبع, ودون تردد صارت تعتبر جيهان مثل عبد الحليم حافظ, أهم امرأة في حياتها, ذلك أنها صارت "رئيسة" في بلد عربي بالكاد يقبل المرأة في منصب وزيرة هامشية, ودون أن تضطر للقيام بانقلاب عسكري .

_ 2 _

بعد المكالمة الخارجية التي تلقتها من خارج مصر, للتو, رفعت سماعة الهاتف, وبادرت بالاتصال بمديحة, وبعد أزيك وأخبارك أيه, وكله تمام, قالت لها: انت عارفة مين اتصل في دلوقت؟

مين ؟

فاكرة الواد ماجد اللي كان زميلي في الجامعة

الشب الخليجي قصدك ؟

ايوة هوة

يجنن , طبعا فاكراه وفاكره كنت أقول لك قربي منه, دة هو مش بيشيل عينيه من عليك, وانت ولا انت هنا, لحد ما قلتي لي ياختي انا مش عايزاه, لو انت عايزاه مبروك عليك .

ضحكت وقالت: ويومها قلت كمان: ياريت, بس هو مش حاسس بي, مشغول بيك مشغول ولآخر يوم في الجامعة مشغول ... قاطعتها وقالت هو انت حتغني لي, المهم ايه اللي فكره بيك, تلاقيه يا عيني ولا نسيك حتى .

تصدقي يا مديحة انه مافيش سنتين, بقى وزير صحة في بلده

طبعا يا بنتي, مش شيخ وابن شيخ ؟

المهم, سألني شنو اخبارك, صار عندك عيال والا بعد ؟

قلت لا طبعا, لسة . قام قال, لي بعدك ما تجوزت, انا يسعدني ويشرفني توافقي نتزوج, وموافق على كل شروطك وطلباتك .

بلهفة سألتها مديحة: اها وقلت له ايه

قلت له أنا لسة مرتبطة, قام عرض علي اشتغل معاه, ومرتب خيالي .

بانفعال قالت مديحة, مرتبطة دة ايه, يا بنتي دة وزير , عارفة ايه وزير.

ببرود ردت عليها: وايه يعني, مهو حافظ حيبقى ريس, وأنا حابقى سيدة أولى .

بإحباط قالت مديحة: ايوة كدة ياختي ظلك احلمي, يا دكتورة, ايمتى حتفوقي من النوم في العسل دة, ايمتى حتشوفي روحك , لما تعجزي ؟

صممت, وسألتها, طيب انت رايك ايه , أروح الخليج أشتغل ؟

ردت بثقة : وهي دي عايزة كلام ؟ مين ليك انت أصلا هنا ؟ لا عيل ولا تيل, لا جوز ولا أهل, سافري يا شيخة سافري, يمكن ربنا يفتح عليك, يا ريت كنت اقدر كنت جيت معاك, والا لو كان اتعرض علي نص اللي اتعرض عليك, لكن صحيح ربنا يدي الحلق للي بلا ودان .

كدة برضه , طيب ربنا يسامحك يا دوحة, يلا سلام .

_ هو _

لم يدر سبب اهتمام "المعلم" المفاجيء به, منذ ذلك اليوم, بحضور تلك الفتاة, فما هي إلا أيام وكان يستدعيه إلى مكتبه, ولم يكن يوجد أحد غيرهما, وما إن دخل حتى طلب منه أن يغلق الباب, وبادره بالقول :

ملازم حافظ, اسمعني منيح, بدي أسألك عن مدى انضباطك وطاعتك لرئيسك .

أجاب دون تردد: مطلقة سيدي .

بأعرف يا حضرة الملازم, ولكن أريد أن اعرف, لو قمت بتكليفك بمهمة ذات طابع أمني, أكنت تنفذها بحذافيرها, أيا تكن طبيعتها ؟

مؤكد سيدي

طيب, يا أسد, فتّح لي مخك, واسمعي منيح .

خرج الضابط من عند العميد, وهو غير مصدق نفسه, ولم يعرف كيف يحدد مشاعره, أيشعر بالقلق أم بالاغتباط, لاشك بأن ثقة القائد فيه ستفتح له أبواب المجد, ستكون مفتاحه لتحقيق طموحاته التي لا حدود لها, لكن أن يتحول إلى رجل قاس, يسقط عواطفه من حساباته, بل من ظروف عمله, فهذا أمر يبدو صعبا ومفاجئا له, ما هو متأكد منه, هذه اللحظة, هو أنه بات يشعر بالقلق, وفي كل الأحوال, تأكد من أن الوصول إلى أهدافه البعيدة, ليس أمرا سهلا, ولا هو طريق معبد سلفا أو مملوء بالورود .

_ الراوي _

بعد نصر أكتوبر العظيم, بدأ كل شيء داخل مصر يتغير, بدأ القطاع العام في الانكماش, انتشرت ملابس الجينز في شارع الشواربي, والملابس المستوردة, وصارت الناس تتفاخر بالشراء من ذلك الشارع, وهجرت الأشواق الشعبية, مثل عمر أفندي, تجد الملابس والإكسسوارات والأحذية, وصار أسم عثمان احمد عثمان في سوق العقارات, الاسم الثاني في الأهمية بعد اسم أنور السادات, كانت مصر بعد أكتوبر قد دخلت في طريق الانفتاح الداخلي, فيما سوريا قد دخلت طريق إحكام القبضة الأمنية الداخلية . صمت دوي المدافع على الحدود, وبدأ صوت صخب البزنس داخل مصر, وأنين القهر داخل سوريا !

هي شخصيا, وجدت في الانفتاح متنفسا, فهي تعشق المستوى البرجوازي في المعيشة, تحب البهرجة والأناقة, وتجد في وجود الطبقات والمستويات بين الناس أمرا طبيعيا, بل وضروريا, وكلما تراجع دور القطاع العام, ازداد ثراء القطاع الخاص, وكلما أغلقت المستشفيات الحكومية أبواب الخدمة العامة أو المجانية, كثر مراجعو العيادات والمستشفيات الخاصة, وصار بمقدور الأطباء مثلها أن يزيدوا من سعر "الكشفية", بل وصار أجراء العلميات يكلف الناس كثيرا, ويدخل إلى جيوب الأطباء أموالا ما كانوا يحلمون بها من قبل .

أما هو فقد وجد في تزايد نفوذ وقوة وسلطة الأجهزة الأمنية, أمرا ضروريا لحماية النظام والدولة, كما أنه شخصيا باتت له مصلحة في تعزيز قوة سرايا الدفاع, التي هو عضو يقع في المستوى الثاني فيها, مستوى القيادة التنفيذية الميدانية .

_ هي _

_ 1 _

عادت إلى البيت كما لو كانت على موعد, وما أن وصلت حتى قامت بإغلاق النوافذ, ثم وضعت باقة ورد على الترابيزة, وأضاءت شمعتين, ثم فتحت المذياع قبل الموعد بنصف ساعة, تنتظر إذاعة الأغنية الجديدة لحبيبها عبد الحليم حافظ, ومجرد أن قال قارئة الفنجان غنوة صعبة شوية,بقول قارئة الفنجان كلامها صعب شوية, وعايز يتسمع شوية, وقبل ما اسمعهالكم أولا عايز اشكر جميع الأخوان اللي قاعدين ورايا دول كلهم, حتى رقصت طربا, وتمنت لو أن حبيبها كان معها, وكانا قد حضرا الحفل في نادي الترسانة شخصيا, لكن أهم ما

في الأمر هو أن عبد الحليم يغني هذه الأغنية لنزار قباني, ما أجمل عبد الحليم حين يغني لنزار قباني, رسالة من تحت الماء وقارئة الفنجان, عبد الحليم المصري ابن بلدها يغني لنزار قباني ابن بلد حبيبها, حقا حين تجتمع مصر وسوريا يتحقق كل شيء جميل, في الفن تكون الروائع, وفي السياسة تكون الوحدة, وفي الحربية تكون القوة .

لكن كلمات الأغنية جعلتها تشعر حقا بانزعاج ما, أية نبوءة هذه التي تتوقعها تلك المرأة المشئومة لعاشقين, أنقبض قلبها قليلا, وخافت من أن يكون قدرها كما قالته كلمات الأغنية .

لكنها وربما لأول مرة, تشعر بأن العرافة محقة, فحبها لذلك الشاب السوري, بدا لها كما لو كان قدرا, لا حيلة لها في تحديد مصيره, فها هو يبتعد عنها, ليس بالمكان وحسب, بل إن رسائله لها شحيحة جدا, فبالكاد قد وصلتها منه رسالتان خلال العام, رغم أنها هي كانت قد أرسلت له أكثر من عشرين رسالة, وبعد مضي نحو خمس سنين على هذه الحالة, باتت موقنة بأنها لا تعرف ماذا تفعل سوى أن تنتظر قدرها, فلا هي قادرة على أن تحب أو أن تتزوج رجلا غيره, بعد أن أنكتب أسمها على اسمه, ولا هي متأكدة من أن القدر سيجمعهما تحت سقف بيت واحد, قريبا على الأقل, لكنها تظن بأنه هو المغرم بالمفاجآت, سيفاجئها يوما ما, بدخوله عليها, وزواجه منها, وهذا أمر يمكن أن يحدث في أية لحظة .

_ هو _

بات الضابط حافظ قلما يزور البلدة, إلا في المناسبات, خاصة بعد أن توفي أبوه وتوفيت أمه, لا يأتي إلا حين يكون هناك عرس لقريب, أو عزاء لواحد من أبناء العم, الذين ما إن يحضر حتى يرفعون اليافطات على مدخل الشارع الرئيسي للبلدة, يرحبون بابن القرية البار, الذي صار رجلا مهما في الدولة, يكتبون بالخط الأحمر العريض :

كل أبناء الضيعة, شيوخا وشبانا, نساء وأطفالا يرحبون بابنها البار حضرة الضابط حافظ, أدامه الله وبقي ذخرا للوطن, معا على طريق حزب البعث العربي الاشتراكي وأمينه العام فخامة الرئيس حافظ الأسد .

_ هي _

_ 1 _

هي مفتونة بقوته, بقدرته على البطش, بقسوة قلبه, حتى وهو لا يهتم بها, هي معجبة جدا بقدرته على الفوز, والانتصار على خصومه وأعدائه, تتأمل شاربه, وتتخيل جسدها بين ساعديه, تذوب في حضنه, هي على استعداد لأن, تمنحه بكارتها, دون أي التزام, فقط أن يسمح لها بأن تتباهي به أمام الناس, يخطر ببالها لو أنها "حملت" من تلك المضاجعة غير المكتملة التي حدثت بينهما, والتي عرفت لاحقا, حيث بحثت في الأمر, أنها يمكن أن تتسبب في الحمل حتى ولم يكن الإيلاج أو الإدخال كاملا, وأنجبت أبنا منه, حينها ستكون أسعد امرأة في الدنيا .

أغمضت عينيها يومها, وبكت, مسح دموعها وسألها: لم تبكين حبيبتي, قالت له : مكنتش عايزة دة, قال لها, انت لسة عذراء حبيبتي, قالت: ايوة بس مش بكر , قال : وايه الفرق , ردت : يااااه , كتير .

صمتا قليلا, ثم بادر بالقول, يلا بلاش عبط , لازم تكوني أقوى من هيك, عمرك ما راح تكوني لحد غيري, قالت: يا سلام ؟ وانت حتكون لحد غيري, ضحك وقال: ولا أنا .

لابد أن تكون مثله, قوية الشكيمة, صلبة, لدرجة أنها صارت على استعداد لأن تصبح طفلة صغيرة, طالما أنها أخطأت .

تحلم به وهي نائمة, يشتهيها, لكنها تهرب منه, تحلم بأنها تجلس على مقعد في الصف الأول لتشاهد عرضا غنائيا, وفجأة يدخل الرئيس ويجلس بجوارها, ثم يطوق كتفها بذراعه, في اليوم التالي كانت تلك الصورة تحتل صدر الصفحات الأولى للصحف .

_ 2 _

من كثرة ما تسمع من الكلام حولها عن كونها تشبه أميرة أوروبية, صارت تهتم كثيرا بمتابعة أخبار الفنانين والملوك والأمراء الأوروبيين, صارت شغوفة جدا بأميرة موناكو, النجمة غريس كيلي التي أدهشتها حين قرأت عنها كيف أنقذت إمارة زوجها الأمير رينيه عام 1962 من احتلال فرنسا, حين فرض الرئيس شارل ديغول حظرا على موناكو بسبب توفيرها ملاذا آمنا للأثرياء الفرنسيين المتهربين من الضرائب, حينها قامت بدعم زوجها الأمير رينيه في المفاوضات الدبلوماسية الساخنة, التي قادت إلى إصدار دستور جديد في الأمارة .

ثم قرأت خبر زواج ملك السويد كارل جوستاف السادس عشر, من فتاة من عامة الشعب, فأعجبت منذ ذلك اليوم بذلك الملك الشعبي, وصارت تتابع أخباره والملكة سيلفيا باهتمام, حتى صارت ترى فيهما ثنائيا محبوبا لديها كما هو حال أنور وجيهان السادات .

كتبت له يوما في رسالتها أنها قرأت عن هذا الملك الثوري, الذي عبر عن تواضعه حين أحب سيلفيا وتزوجها, وحين تنازل عن جميع المراسيم الشرفية, وهو الذي كان يتولى توزيع جوائز نوبل للسلام .

فاجأه ما كتبته له, فصار هو بدوره أيضا يتابع أخبار السويد وملكها, إلى أن قرر في يوم ما الهجرة من هذه البلاد التي هي مثل القطط تأكل أبناءها, إلى تلك البلاد التي لا تفرق بين مواطن عادي وملك

الفصل الثالث

(1977 _ 1984)

_ هي _

_ 1 _

منذ الحادي والعشرين من شهر أكتوبر, وحتى العشرين من نوفمبر, تعتبر الشهر كله شهرها المفضل, بل عادة ما تحرص على أن تكون عطلتها السنوية في ذلك الوقت, وذلك على اعتبار أن هذا الشهر بين هذين اليومين بالتحديد هو شهر العقرب حسب التقويم الشمسي, وحيث هو يجيء في الخريف, فقد كانت تعتبر أن الإجازة هكذا إنما هي مستحقة وفي توقيتها, أي حين تقترب السنة من الانتهاء, وهذه الفترة أفضل على أي حال من أن تكون الإجازة في شهر ديسمبر, حيث أن جميع الناس تكون في انتظار رأس السنة, وكأنها في عجلة من أمرها, هكذا تشعر هي بشيء خاص, تنفرد به لنفسها ووحدها, وبالطبع هي تتوقع أن تحدث أشياء ما من عالم الخريف, ولا تستغرب إن مات أحد من زملائها, أو أنها فشلت في مشروع أو أمر ما, ففي

الخريف تسقط أوراق الشجر, وتستعد الكثير من النباتات للموت, كذلك فإن معظم الكائنات تستعد لبياتها الشتوي .

هكذا وفي ظل هذه الأجواء كانت, يوم التاسع من نوفمبر عام 1977, على موعد مع الرئيس السادات حيث سيلقي خطابا في افتتاح دورة مجلس الشعب, وكالعادة, حرصت على أن تشاهد خطاب الرئيس في التلفزيون, لذا فقد أغلقت الباب والنوافذ, وقامت بأعداد الشاي, ووضعت المكسرات والساندويتشات, على الترابيزة أمامها, وجلست تنتظر الخطاب .

الرئيس السادات بدهائه ومكره خير من يمثل العقرب, ولولا أنها تعرف أنه من مواليد برج الجدي حيث أنه مولود في 25 ديسمبر من عام 1918, لقالت إنه من مواليد برج العقرب.

استمعت للخطاب باهتمام, وكما حدث مع كل المشاهدين من العرب, حكاما ومواطنين, تفاجأت مما قاله السيد الرئيس, من أنه على استعداد للذهاب لإسرائيل من أجل السلام, لم تدرك معنى الجملة لحظتها لكن ما قوبل به الخطاب من رد فعل الحضور من خلال التصفيق جعلها تشعر بأن ما قاله الرئيس ينطوي على حدث جلل .

في تلك اللحظة بالذات, رأت وجه جيهان يرتسم أمامها بفرح لكنه قلق, ماذا يعني هذا, بأنه لن تكون هناك حرب , والله كدة كويس, لكن ماذا سيحدث مع سوريا, هل سيذهب الرئيس السوري مع الرئيس المصري فيصنعان السلام معا, كما صنعا الحرب قبل ذلك بأربعة أعوام معا, يا ريت . هذا ما تمنته من أعماق قلبها, وهذا ما اهتدى إليه عقلها, فمصر وسوريا قويتان معا في الحرب وقادرتان على صنع السلام معا, أيضا .

تنظر إلى صورة الرئيس السوري, في الجريدة التي بين يديها, تدرك بأن هناك تشابها بين حبيبها ورئيس بلاده, كما لو كان أبنا له أو حتى كما لو كان أخاه الأصغر, الجبهة العريضة والشعر الناعم والعينين اللتين تشعان ذكاء, والهالة التي تحيط به, كذلك المهابة التي تسير معه حيث كان وحلّ, تمنت من أعماق قبلها أن يوافق الرئيس السوري على استقبال صديقه ورفيق سلاحه في حرب تشرين, السادس من أكتوبر المجيدة, وأن لا يرده خائبا, وكما كانا شريكين في الحرب يكونان شريكين في السلم .

حتى يمكنها أن تظفر بحبيبها بعد كل هذه السنين لابد من أن تظل مصر وسوريا حليفتين .

وحين علمت بأن الرئيس السوري لم يوافق الرئيس السادات, على أن يسير على طريق السلام معه, انقبض قلبها, وأدركت بأن جبالا وسدودا, بل وحواجز أين منها خط بارليف المنيع قد أقيمت بين جسدها وجسد حبيبها, الذي لن تطاله, وستظل تتمناه وتشتهيه إلى آخر يوم في عمرها .

بعد سنوات ستفكر بأن تذهب بنفسها للرئيس السوري, فتفعل ما عجز السادات عن فعله, فتتقمص مكانة السيدة الأولى, ليست سيدة مصر الأولى ولا سيدة سوريا الأولى بل سيدة الولايات المتحدة الأولى, لكنها لم تكن هيلاري كلينتون, بل كانت ليا كلينتون !

_ هو _

كانت المقاهي والناس قد ضجّت حين ألقى الرئيس المصري قنبلته السياسية, وأعلن عن استعداده للذهاب إلى القدس ومخاطبة الإسرائيليين في الكنيست, أدرك لحظتها بأن ما كان بين الرئيسين حافظ الأسد وأنور السادات من تحالف في حرب تشرين, قد أنقلب رأسا على عقب, وأن القطيعة قد وقعت بين مصر وسوريا, ورغم أنه قد أعلن بأن السادات سيطير إلى دمشق للقاء الرئيس الأسد, في محاولة منه, على ما يبدو لإقناعه بتأييده في مبادرته من أجل السلام في الشرق الأوسط, إلا أن تلك المحاولة ذهبت أدراج الرياح, ولو أن السادات كان حقا, يحرص على شراكة الأسد في السلم كما في الحرب لكان قد حاوره قبل أن يتخذ قراره هذا, لا أن يذهب إليه محاولا أقناعه ليذهب معه, أو ليتجنب انضمام سوريا لحالة الرفض العربي التي اجتاحت كل البلاد العربية, فقد حدث يومها أن توافق الشارع مع القصور الملكية والجمهورية, في واحدة من المرات القليلة, في رفض موقف سياسي خاص بدولة عربية, خاصة وأن الحديث يجري عن أكبر وأهم دولة عربية وهي مصر .

ضرب رأسه بيده قائلا: يا للكارثة, لن تثني زيارة السادات لدمشق الرجل عن زيارته لإسرائيل, كما أنها لن تمنع سوريا من الانضمام للأغلبية العربية في رفض المبادرة وحتى في كل ما جرى بعد ذلك من قطيعة ومقاطعة لمصر, بما في ذلك نقل مقر جامعة الدول العربية من القاهرة إلى تونس, بل وتعليق عضوية مصر في الجامعة, إلى حين إسقاط كامب ديفيد !

المصيبة هي أن العرب لن ينجحوا في منع السادات من إتمام الزيارة, ولا من الخروج من دائرة المقاطعة العربية لإسرائيل, والأخطر من هذا كله, هو أن الشراكة الإستراتيجية بين مصر وسوريا قد ضربت في مقتل, ويقينا بأنه لو أن كل العرب كانوا خارج دائرة الفعل والتأثير وحتى العداء لإسرائيل وبقيت سوريا ومصر معا, لكن ذلك أفضل للعرب, وأكثر إيلاما لإسرائيل, وهذه الحقيقة عمليا كانت منذ عام 1948, حيث فقط مصر وسوريا هما من بين كل العرب الدولتان اللتان حاربتا إسرائيل .

نظر إلى إصبع يديه اليمنى الخنصر, لم ير الخاتم, تذكر انه كان يحرص دائما حين يخرج من البيت, خاصة حين يذهب للعمل, يقوم بخلعه, وذلك كأجراء أمني, لا يفضل أن يعرف الناس الكثير عن الحياة الخاصة لضباط الأمن, المشكلة أنه لم يتذكر هذه المرة أين وضعه, بحيث عنه في أدراج مكتبه, على التسريحة, بين أشيائه الخاصة, لم يجده, فتوتر, ثم رأي ذلك فأل شؤم, وكأنه قد فقد علياء إلى الأبد .

_ هي _

_ 1 _

بعد أيام فقط , تيقنت بأنه بعد هذا اليوم, لو كان صعبا عليه المجيء فإنه الآن صار مستحيلا, وإن كانت هناك أسباب خاصة به حالت دون مجيئه حتى اللحظة, فأنه بعد الآن قد صار هناك سبب عام, يستحيل عليه أن يتيح له الفرصة للمجيء, بل حتى هي بات من الصعب جدا عليها أن تفكر في السفر إلى سوريا. احتارت في الحقيقة, في كيفية إدارة شعورها تجاه الحدث, هي اعتبرت الرئيس محمد أنور السادات اشطر رئيس عربي, وهي التي لم تكن تهتم من قبل بالسياسة, لدرجة أنها لم تهتم إن كانت تحب جمال عبد الناصر كما هو حال الكثيرين من أبناء جيلها, أم لا, لكنها تعرف أن مشاعرها كانت تجاهه محايدة تقريبا, خاصة وأن الناس لم تكن في ذلك الوقت تذهب إلى انتخابات لتقول نعم أم لا, لهذا الرئيس أو ذاك .

الأمر مع السادات مختلف, هناك السيدة جيهان, التي رأت فيها صورتها المشتهاة, ولأن أنور السادات هو زوج جيهان, فلا بد أن يكون رئيسا عظيما, ألم يقولوا بأن وراء كل رجل عظيم امرأة, فكيف يكون الحال والحديث عن جيهان, أجمل وأروع وأعظم امرأة في نظرها .

لكن زيارة السادات للقدس, قد عكرت صفو حياتها, صحيح أن زوجها وحبيب روحها, قد سافر قبل تلك الزيارة بسنوات, إلا أنها كانت تقدر بأن هناك سببا خاصا, له علاقة بطموحه في أن يصعد في سلم القيادة, وكما هو يحتمل غيابها, فعليها هي أن تحتمل هي غيابه أيضا, وأن تكون المرأة التي تجعل منه رجلا عظيما, لابد أن تحتمل الغياب ولو طال العمر كله . حتى هذه اللحظة لم تنقطع تماما أخبار حافظ ولا اتصالاته القليلة, لكنها الآن صارت محتارة, فأن تقاطع سوريا مصر, يعني أن حبل الوصل بينها وبين زوجها قد انقطع !

_ 2 _

اليوم هو يوم الجمعة, نامت حتى ما قبل الظهر بقليل, وما أن بدأ النوم يغادر جفونها, حتى كانت تمد يدها تحت الغطاء, ثم على المخدة, وحين لم تجده بدأت تنادي: حبيبي وينك ؟ أنت صحيت بدري .

ذهبت إلى البلكونة, لم تجده, إلى الصالون, إلى الحمام, ثم إلى المطبخ, تفقدت الأواني .

آه يا غدار, شربت القهوة من غيري, طيب , حعمل قهوتي ومش حاعمل حسابك .

سرعان ما تنسيها طيبتها رغبة عابرة بالانتقام, فتضع "ركوة" القهوة على النار, ثم تضع فنجانين على الصينية, وتذهب إلى الصالون, تفتح التلفزيون, وتبدأ بشرب القهوة .

بعد قليل تنادي : حبيبي قهوتك بردت .

_ هو _

كان يدخن سيجارته بشراهة وهو يرشف القهوة السادة, ويقلب أوراق ملف أمني, سوريا بعد اليوم أصبحت في موقف صعب, ستحاول إسرائيل بعد توقيع مصر لاتفاقية كامب ديفيد أن تنفرد بها, لذا حسن فعل السيد الرئيس حافظ الأسد, حين أعلن سياسة الأعداد والأستعداد للتوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني, فقد عبر بذلك عن نضج القائد, الذي لا يمكن للعدو أن يجره لحرب خاسرة, لكن قبل الحصول على السلاح الاستراتيجي والقوة العسكرية لا بد من تحصين الجبهة الداخلية, وتنظيف الساحة الخلفية من الكلاب عملاء الغرب, ستحاول إسرائيل أن تمارس كل أشكال الضغط على سوريا, حتى تكون بين خيارين: إما أن تذهب لحرب في الزمان والمكان اللذين تريدهما إسرائيل, أو أن تذهب في طريق السادات, فتكمل دورة إنهاء حالة الحرب بين العرب وإسرائيل .

_ الراوي _

الخبر الجميل في هذه الفترة من الانحدار العربي السياسي, ومن حالة الضغط خاصة على سوريا التي أحدثها خروج مصر من دائرة الحرب مع إسرائيل, كان ثورة الخميني في إيران, فقد أراد الله أن يدعم الصامدين, لكن الأعراب من العرب, ورطوا صدام حسين والعراق في حرب مع إيران استمرت مدة ثماني سنوات من العبث السياسي والعسكري, الأمر الذي سمح لكامب ديفيد أن تبقى, رغم أن السادات نفسه قد لقي حتفه, في حادثة المنصة .

_ هي _

_ 1 _

كانت تستمع بشغف للمسرحية الغنائية اللبنانية (بالنسبة لبكرة شو)، ثم وجدت نفسها ترقص طربا على إيقاع كلمات وتلحين أغنية (ع هدير البوسطة)، التي كتبها ولحنها زياد رحباني,

أين السيدو فيروز, والتي تغنى بها في أحداث المسرحية المطرب اللبناني جوزيف صقر عام 1979.

منذ أن تعلقت به وحلمت به فارسا لأحلامها وهي تهتم بكل ما هو سوري, صارت تحرص كلما سنحت لها الفرصة في أن تستمع للأغاني السورية, ولم تكتف بفهد بلان, بل عرفت صباح فخري وشادي جميل وصفوان بهلوان, كما أنها عرفت الثنائي دريد لحام ونهاد قلعي, وصارت تتقن تلفظ بعض كلمات اللهجة الشامية, وحين يتم عرض مسلسل أو أغنية سورية, تتابع باهتمام .

ثم سمعت السيدة فيروز وهي تغني عهدير البوسطة , فطارت مجددا معها, وأخذت تسمعها كما لو كان حبيبها يغنيها لها :

موعود ... بعيونك أنا موعود

وشو قطعت كرمالن ضيع وجرود

انت عيونك سود ومانك عارفة

شو بيعلموا فيّ العيون السود

ع هدير البوسطة ال كانت ناقلتنا

من ضيعة حملايا لضيعة تنورين

تذكرتك يا عليا وتذكرت عيونك

يخرب بيت عيونك يا عليا شو حلوين

تتذكر حبه لعينيها , حين كان ينظر إليها مطولا, ويقول: ما شاء الله علوشة, هكذا كان يحب أن يدللها . عيونك واسعين متل عيون المصريين, حوراء وكحلة, وفوق كل هاد لونها سماوي ازرق, حينها تضع كفها في وجهه قائلة, عين الحسود, امسك الخشب, فيضحك قائلا, أصلا أنا اللي باستمتع بشوفة عيونك مو انت .

_ 2 _

لم تكن تعلم وهي التي كانت لا تعرف شيئا عن السياسة ولا تهتم بها, أن تتدخل السياسة في حياتها الخاصة إلى هذه الدرجة, فقط لأنها أحبت رجلا عربيا ليس مصريا, لأنها فقط ارتبطت برجل سوري, حتى فرض عليها القدر أن تدفع ضريبة الفارق بين الحلم والواقع, الحلم بوحدة

العرب وخاصة مصر وسوريا, وواقع الانفصال والانقسام, فالعرب كلهم قاطعوا مصر بعد زيارة السادات لفلسطين المحتلة, وهكذا فإن الشعب المصري كله, قد دفع ضريبة هذا الخلاف, وتلك العزلة التي فرضها العرب على مصر بمقاطعتها وبالتالي انقطاع الاتصالات بين مصر والدول العربية, بل صار السفر من مصر لأي بلد عربي, أو من أي بلد عربي إلى مصر, أمرا بالغ الصعوبة .

_ 3 _

من اجل أن تغير جو, صحبتها مديحة إلى مدينة العريش حين رفع العلم المصري عليها, فشعرت بشيء من الزهو, فقد أعاد السادات هذا الجزء من الوطن المصري وهذه المدينة المصرية, لكن الثمن كان قطيعة مع العرب, ما أصعبه من ثمن ثقيل الوقع على قلبها وعقلها وروحها. رأت بان هذه اللحظة وحدها تكفي لتكون سببا لما فعله السادات, أما العرب فأنهم لا يرون ابعد من أنوفهم, على أي حال مع مرور الوقت سيعرفون بأنه كان على حق وهم كانوا على خطأ, باتت متأكدة من هذا, لكن هذا الوقت مع مروره سيمتص من روحها توثبها, ومن جسدها نضارته, سيمضي شبابها دون أن تستمتع بالعيش مع حبيبها .

_ هو _

_ 1 _

كل من ضاجعهن من النساء, كان يحتسي معهن النبيذ الأحمر, هو يعشق النبيذ الأحمر المعتق, حتى صار يطلق على نفسه عاشق النبيذ, لا يحب أي نبيذ أخر, سوى الأحمر, وباستثناء الويسكي في اللقاءات الرسمية, فإنه لا يشرب في سهراته الماجنة أو في جلساته الحميمية إلا النبيذ الأحمر, وعادة ما يجبر شريكته على شرب النبيذ معه, يضحك ويقول حتى تكون ليلتنا حمراء فلا بد أن نشرب أنا وأنت النبيذ الأحمر, ثم يعبس ويقول لها: النبيذ أم الدم, لو ما بدك نشرب نبيذ, ويتناول السكين من على طبق الفاكهة أمامه ويضعه على معصمه, بنشرب دم بعض, فشو رايك ؟

أول مرة شربه ظن أنه قد عاد إلى عصر الجاهلية قبل الإسلام, وأنه ليس سوى واحد من سادة قريش, وحلم بأن يجيء يوم ينصب فيه خيمة, ويجالس ثلة من النساء ترقصن له وحده, ويشربن معه النبيذ, حتى يسكرون جميعا, فيمارس معهن جنسا جماعيا .

وكان كلما خرج في مهمة, يحرص على أن يظهر بكامل أناقته, يضع في جعبة الذخيرة زجاجة نبيذ, وفي فمه السيجار الكوبي, ويرش كامل جسده بالعطور, ثم يهجم كثور هائج بعد أن يفتح زجاجة النبيذ, ويسكب نصفها في جوفه دفعة واحدة, ثم يبدأ بإطلاق الرصاص .

شعر بهدوء ومع مرور الوقت صار يحس برفقة النبيذ والسيجار الكوبي بعظمة وثقة, كان يتأمل كأس النبيذ الأحمر, فيراه كما لو كان دما, ألم يقولوا بأنهم يحتفلون بعيد ميلاد السيد المسيح بشرب النبيذ الذي يوحي بأنه دمه, يشعر بالراحة وهو يشرب النبيذ, كما لو كان يشرب دما, وهو الذي كان قد حلف يمينا بأن يشرب من دم الأوغاد, الطابور الخامس, حين انطلق بكل همة وحماس ونشاط, لإخماد التمرد في سجن تدمر .

_ 2 _

لم يكن هناك ما يوحي بأن ذلك اليوم من حزيران سيكون غير عادي أبدا, لكنه لا يرتاح لهذا الشهر, فهو على عكس التشرينيين الممتلئين بالاحتفالات والسهر والمتعة, كل ما فيه يذكر بتلك النكسة اللعينة التي حلت بالعرب قبل ثلاثة عشر عاما, إلى أن جاء السيد الرئيس حافظ الأسد, وطوى صفحتها بنصر تشرين المجيد,,, حافظ الأسد, يا له من رجل, بل يا له من قائد لم تعرف العرب له مثيلا منذ أيام صلاح الدين, في عهده الذي يقترب الآن من العشر سنوات, عرفت سوريا أخيرا الاستقرار الذي لم تعرفه منذ الاستقلال, وبنبله ورجولته العسكرية حقق أول نصر عظيم للعرب على إسرائيل, وبذكائه ودهائه السياسي, قضى على أعدائه الداخليين, الذين ما كانوا يتمتعون سوى بالسذاجة السياسية, وكادوا أن يستنسخوا لنا تجربة السوفيت, وظنوا أن السلطة للحزب, لكنه هو عرف أين تكمن السلطة, بالقوة العسكرية أولا, ثم بالأجهزة الأمنية ثانيا .

بعد أقل من عشر سنوات, لم يعد أحد في سوريا يجرؤ على التلفظ باسم السيد الرئيس مجردا من اللقب, بل لا تجرؤ الناس على التلفظ بإسمه في أية مناسبة, حتى بات تداول أسمه الشخصي عزيزا ونادرا, يذكر فقط في نشرات الأخبار وفي وسائل الأعلام الأخرى.

فجأة ظهرت جماعة الأخوان المسلمين, كحالة تدل على الإحباط واليأس ومحاولة العودة بالدولة والمجتمع إلى الوراء, يهاجمون كل مظاهر التحرر الداخلي, يدّعون بأن في سوريا فجورا وكفرا, يحاولون أن يضعوا حدّا لكل مظاهر الحريات الشخصية التي يتمتع بها المواطنون, لكن أن تصل الجرأة بهم إلى محاولة اغتيال الرئيس, فهذا هو الجنون بعينه .

كان كل شيء يبدو عاديا, حين إستقبل الرئيس ضيفه الأفريقي, ثم قام بتوديعه, حين ألقى احد رجال حرسه الخاص قنبلة عليه,, معقول ما سمعناه ؟

انتشر الخبر بين أفراد أجهزة الأمن كما النار في الهشيم اليابس, ومعه تداول الرفاق باندهاش عظيم شجاعة الرئيس الأسد, التي لا تليق إلا به فقط, حيث انحنى بقامته العظمية وركل القنبلة بقدمه حيث انفجرت بعيدا عنه .

بعض الخبثاء قالوا بأن الواقعة ما كانت إلا ترتيبا أمنيا, تذّكر بما حدث للرئيس جمال عبد الناصر فيما عرف بحادثة المنصة في الإسكندرية, لكن ليس في سوريا من معارض سوى هؤلاء الأخوان المسلمين, وإن كان جلّهم في السجون, إلا أنهم معروفون تاريخيا بلجوئهم إلى الاغتيالات في كل مكان يحلّون فيه .

لم ينم أحد تلك الليلة, على أي حال, وإن كانت الناس قد احتفلت بسلامة الرئيس, فإن جهازه سهر الليل يحضر لشيء ما كان مناسبة, ليدرك أهميته الشخصية حين استدعي للمشاركة في ذلك الحدث الجلل .

كان واحدا من نحو مئة عنصر, تم نقلهم بالمروحيات إلى الشمال الشرقي من دمشق, وعلى بعد نحو مائتي كيلو متر, حطّت بهم في مطار تدمر العسكري, حينها خمّن وجهته, وما هي إلا لحظات وكان قائد العملية يشرح لهم ما هو المطلوب منهم بالضبط .

كانوا بأكمل عتادهم العسكري مسلحين بالأسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية, حين اندفعوا إلى داخل أروقة السجن .

_ 3 _

كانت تلك أول مرة يشارك فيها في اقتحام أو تصفية مكان يتحصن فيه معادون للنظام, كان طوال الطريق يشرب من عرق توما, حتى ثمل, وكانت الثمالة وصفة ممتازة ليطلق العنان لما بداخله من عنف وقسوة, أطلق الرصاص في كل اتجاه, كما لو كان رامبو .

كان يومها أول من وصل إلى السجن برفقة العميد مسئول الحملة, وفي لحظة ركض نحو المعتقلين وقبض على رقبة أول واحد منهم, ثم أستل سكينه وقام بذبحه, ومن ثم لعق بلسانه رقبته, الأمر الذي دفع المعتقلين للهرب, فأحدث بذلك حالة من الفوضى, حينها نظر إليه العميد نظرة رضا, وقال له: حقا انك حلفت وأوفيت .

غريب أمر هؤلاء الأخوان المسلمين يا رفيق, هكذا بدأ حديثه إلى صديقه ورفيق دربه, كيف يحنّون إلى الدولة العثمانية, بل أن يتشكلوا كجماعة هدفها الأول هو إحياء دولة ماتت قبل عشر سنين من ظهور حسن البنا, وكيف يحلمون بإعادة دواليب الزمن إلى الوراء, ليس بعيدا إلى

عهد الدولة الراشدة, أو الأموية أو حتى العباسية, بل العثمانية مع أن تركيا نفسها, وقبل ظهور تلك الجماعة وبعد الحرب العالمية الأولى التي ذهبت بدولة إبن عثمان بعد نحو خمسمائة سنة من تأسيسها, قد ألقت عن كاهلها بإرث تلك الدولة التي كانت سلطانية على أي حال, لم تكن تسودها الشورى, بل انحصرت السلطة فيها كما هو النظام الملكي في نسل أحفاد عثمان, كما أنها كانت دولة إقطاعية بكل معنى الكلمة, كما هو حال ذلك العصر, فكل ملاك الأرض في البلاد العربية باشوات ترك أو ممن يمنحهم السلطان فرمان الملكية, وحتى أن فلسطين مثلا كانت بمعظمها وقفا إسلاميا مما سهّل نقل ملكية الأرض لمن احتلها من غزاة انجليز أو صهاينة, حتى جاء مصطفى كمال, الذي لقب بأتاتورك أي أبو الأتراك, فأقام دولة علمانية في تركيا .

الغريب في أمر تلك الجماعة أيضا هو أنها ومنذ أكثر من خمسين سنة لم تصل إلى الحكم ولا في أي بلد, لكنها تتطلع إليه بشوق وتوق, وتنتهج طريق "تمسكنوا حتى تتمكنوا", ولعل انزواءهم في المساجد, وعدم تدخلهم الظاهري بالسياسة هو ما جعل الدولة والحزب والقائد يغفلون عن مخططاتهم ومؤامراتهم, فهم مقربون من الغرب, في حين أن سوريا هي حليف للشرق الاشتراكي وللسوفيت, كما لو كانوا مثل حصان طروادة, حين تعجز إسرائيل وأمريكا عن إلحاق الهزيمة بسوريا, عبر جرّها لحرب خاسرة تخوضها وحدها هذه المرة دون مصر, تلجأ إلى شن الحرب عليها من الداخل .

عشر سنين, بذل جهده الرئيسي السيد الرئيس خلالها, لتطهير الحزب وأجهزة الدولة بما في ذلك الجيش, وعبر إقامة أجهزة أمن الدفاع عن الدولة والنظام, حيث ظن بأن جناح صلاح جديد في الحزب والدولة هو عدوه الوحيد, حتى اشتد عود الأخوان, وبدأت التقارير الأمنية تكشف عن تشكيلهم لجماعات عصابية, بدأت تتسلح بالسلاح الأبيض وتصنع المولوتوف, وتجعل من المساجد مقرات لها, ثم تتحصن بالمدن السنية بالشمال, في حماة وغيرها, مما ينذر بمخاطر اندلاع حرب داخلية طائفية !

الأمر في غاية الخطورة إذا, فهم يهمسون بأقوال غريبة عن الثقافة السياسية السورية, وحين يقولون بأن النظام قد بدأ يتحول إلى نظام طائفي, علوي, ينسون أو يتناسون بأن صلاح الدين كان كرديا سوريا, وأن عماد الدين ونجم الدين ومعظم الذين قاتلوا المغول ما كانوا عربا, لكنهم يحرّضون على النظام من خلال إلصاق صفة الطائفية فيه, أو من خلال ذمّ تقدمية وعلمانية سوريا, بنشر الثقافة السلفية .

لن تتوقف الحرب الداخلية إذا عند حدود جدران تدمر, ما دام الأخوان يتكاثرون مثل الأميبية, أو مثل القطط, ويجعلون من آثار الصمود السوري, على الصعيد المعيشي والاجتماعي, مادة تحريض لهم ضد النظام والسيد الرئيس شخصيا .

هكذا تعود أن يسبق كل حفلة بشرية, كما كان يسمي تصفية أعداء النظام, أن يشرب حتى الثمالة, إلى أن أدمن الشرب, الذي صار هدية الأصدقاء المفضلة له, وبعد عرق توما الدمشقي صار تهريب عرق كسارة اللبناني إلى سوريا حقا حصريا له, ثم صار النبيذ مشروبه المفضل .

كيف تكون الحياة بلا نبيذ أو بلا نساء, لو لم يكن النبيذ ولو لم تكن النساء زينة الحياة الدنيا, وأكثر ما فيها من مباهج, لما وعد الله بها المؤمنين ولما قال بأن الجنة فيها أنهار من الخمر, وسبعون حورية لكل رجل .

ثم تطور الأمر به , إلى أن صار يرفق المشروب بتدخين الحشيش, الذي اكتشفه في لبنان أيضا, وصارت الملاهي الليلية مسكنه اليومي تقريبا .

يشعر بأصالته وهو يشرب الخمر, لا شي يضاهي النبيذ أو الخمر متعة, لذا صار مغرما به, وصار أصدقاؤه حين يسافرون يحضرون له أفخر أنواع النبيذ المعتق, وصار مهتما به, فعرف أنواعه المختلفة, وأهم البلاد التي تنتجه, وصار على معرفة بأسعاره المختلفة, حتى أذا ما أضطر مع جماعته عام 1984 لمغادرة سوريا, والذهاب إلى فرنسا, شعر بأنه لم يبتعد كثيرا, بل كما لو أنه كان يجب عليه أن يقيم هناك من زمان .

_ هي _

_ 1 _

بعد وقت أدركت بأن من تحب من الرؤساء, قد فرّق بينها وبين رجلها الوحيد الذي عرفته وأحبته وارتبطت به في حياتها, وقد لمست ذلك بنفسها, حين بات الاتصال الهاتفي بسوريا وحتى بأي بلد عربي آخر, في غاية الصعوبة, وحين عرفت بأن معظم خطوط الطيران العربية قد بدأت حظرا على السفر للقاهرة, شعرت بشيء من الاكتئاب والانقباض, وصارت تميل أكثر إلى الانزواء, ولم تعد ترغب في الخروج إلا للعمل, ومن العمل للبيت, ومن البيت للعمل, هكذا أمضت أيامها التالية, إلى أن جاء يوم كان أسود من "قرن الخروب", فحين عادت للبيت وهي منهكة, فوجئت بأمها مصابة بإعياء شديد, كان نبضها بطيئا, وبالكاد تلتقط أنفاسها, وحالة من التعرّق قد أصابتها, سارعت بنقلها إلى المستشفى, ثم اتصلت بأخوتها, الذين جاؤوا على عجل, كانت الأم قد أصيبت بجلطة مفاجئة, لذا فقد أدخلت إلى غرفة العناية المركزة, وما هي إلا ساعات وكانت قد فارقت الحياة .

أصابها الذهول, وما استطاعت البكاء ولا النحيب, كانت مديحة إلى جوارها وزوجتا أخويها, يحثونها على البكاء, لكن دمعة واحدة لم تخرج من عينيها, تنظر بعين شاحبة, فلا ترى أحدا ولا

ترى شيئا. وبين فينة وأخرى, تصبيها نوبة من الضحك الهستيري, الأمر الذي أضطر مديحة إلى أن تأخذها إلى المستشفى, حيث قام الطبيب بحقنها بالحقنة المهدئة .

هي ها تفقد أمها التي رافقتها طوال ثلاثين سنة, تفقد رفيقها الذي لازمته طوال ما مضى من حياتها التي مضت, فيما هي تفارق منذ عشر سنوات رفيق حياتها القادمة . الشعور بالفقد, خاصة حين يكون مفاجئا وبلا توقع أو مقدمات, يهبط على الرأس كالصاعقة, فلا تحتمله الجبال, فكيف يكون الحال مع فراشة حالمة, تحلق في عالم الخيال مثل علياء ؟ !

_ 2 _

أكتوبر 1981

ما زالت ترتدي ثوب الحداد على أمها, رغم مضي عام على وفاتها, ومنذ ذلك اليوم, صارت تحاول أن تعوض فقدان وجود أمها وصوتها الذي اختفى من البيت, بان تفتح التلفزيون طوال الوقت ولا تقفله, فتشعر بأن هناك من يشاركها المعيشة في المنزل, إلى أن بدأ الاستعراض العسكري السنوي, الذي كانت تقيمه القوات المسلحة بمناسبة انتصار السادس من أكتوبر, وفي مقدمة المنصة يجلس الرئيس محمد أنور السادات والى جانبه نائبه محمد حسني مبارك, وكبار قادة الجيش والقوات المسلحة وكبار رجال الدولة .

كانت تنظر للطائرات الحربية وهي تحلق في السماء, فتتمنى لو أنها كانت حمامة تطير من مكان لآخر, لطارت من توها وتجاوزت الحدود وذهبت إلى حيث رجلها الوحيد في هذه الدنيا في قلب العروبة النابض, لكن ما هي إلا لحظات, وكانت ككل المصريين, تفاجأ بخروج ثلة من الجنود المسلحين واقترابهم من المنصة, ثم بإطلاقهم النار على من في المنصبة, لتشاهد الدنيا كلها, جريمة اغتيال الرئيس السادات في بث حي ومباشر .

انكمشت على ذاتها, وانفجرت بالبكاء, حيث انهمرت الدموع من عينيها كما لو كانت نهرا, تلك الدموع المنحبسة في عينيها منذ عام مضى, نظرت إلى الصورة التي على الحائط, فرأت جيهان بثوب الزفاف وقد تحول للون الأسود, ثم نظرت في المرآة فرأت صورتها مع رجلها, بثوب أسود أيضا, ومن يومها بدأت تشعر بأنها قد صارت أرملة !

_ هو _

شباط 1982

_ 1 _

صار أكثر عصبية من ذي قبل, وصار يقضي الكثير من الوقت في الملاهي, ثم صار يسافر باستمرار إلى بيروت, حتى عرف معظم ملاهيها, والكثير من النساء فيها, ثم بدافع تغيير الجو, صار يذهب إلى البقاع, حيث كروم العنب, وصار يعرف أين يجد النبيذ الفاخر, وحتى عرق كسارا الذي كان يشربه أيضا .

لم ير في لبنان إلا امتدادا للساحل السوري, وبيروت بنظره ما هي إلا أخت اللاذقية وطرابلس هي توأم طرطوس, لكن الحياة في بيروت قلقة إلى حد كبير, حيث أن الدولة تكاد تكون غير موجودة, ففي كل مكان ترى المقاتلين الفلسطينيين, كما لو كانوا هم رجال الأمن الداخلي, لم يعنه الأمر كثيرا, بقدر ما كان مهتما بأن يذهب إلى بيروت أسبوعيا, فيعود بزوادته من النبيذ الفاخر, والسيجار الذي يعشقه, وكل ما يحتاجه من معلبات ومواد تموينية مستوردة .

جاءه اتصال يطلب منه الحضور فورا, وما هي إلا برهة وكان يدرك بأن هناك أمرا عظيما سيحدث, فقد رأى أن القيادة العليا في حالة استنفار, لمواجهة التمرد الأخواني في مدينة النواعير بشمال سوريا .

سبعة وعشرون يوما متواصلة, وقوات الجيش تساندها قوات الأمن وأفضل ما في سوريا من قوات لحفظ النظام, وهي تطوق حماة, وتقوم بدكها بالمدفعية, فلم يرد القائد أن يغامر بأرواح جنده المخلصين, ولم يدفع بهم إلا بعد أن تأكد من أن المدينة قد انهارت على من فيها .

تذكّر حصار جيش هتلر لمدينة سان بطرس بيرغ في الحرب العالمية الثانية, وما كتب عنها من أساطير, لكن حماة لم تكن مثل لينينغراد , فحين قامت قوات النظام بدخولها, كان هو في حالة غياب تام عن الوعي, لا يذكر سوى أنه كان يطلق الرصاص في كل اتجاه, ولا يتذكر سوى أنه كان يقوم بتذخير سلاحه كل بضعة دقائق, ولم يذكر أنه رأى أحدا من وجوه من قام بقتلهم, لكنه بعد أن انتشر الموت في كل أنحاء المدينة, كان قد رأى عيون أطفال مطفأة, ووجوه نساء ملطخة بالدم, وأشلاء رجال قد تناثرت في كل مكان, في الوقت الذي انتشرت فيه رائحة الشواء في كل المنطقة, إلى أن تدخلت الجرافات لتحفر الأخاديد ومن ثم تقوم بدفن الجثث, فتحولت حماة من مدينة للنواعير إلى مقبرة جماعية !

_ 2 _

الصمت مطبق على كل أنحاء المدينة, ورائحة الموت في كل مكان, رأى عزرائيل جالسا على أعلى دولاب الناعورة التي جلس قربها على ضفة نهر العاصي, في محاولة لالتقاط أنفاسه . خاطبه قائلا : الم تكتف بعد ؟

فسمعه يقول له: بالطبع لا, بقيت أنت, أريد أن اقبض على روحك

فرّ مذعورا, وسار في الطرقات لا يدري إلى أين يستقر به المقام, كان الدمار في كل مكان, حتى أن مسجد أبي الفداء نفسه قد أصابته قذائف المدفعية وألحقت به أضرارا بالغة, ضحك من

أعماقه, وتذكر الرجل الأيوبي الذي انشأ مملكة له في مدينة النواعير بعد أن كان أبواه قد هربا من حماة, ولجآ لدمشق هربا من المغول, فقام ببنائها كما يليق برجل يحب مدينته .

المساجد لم تعد بسبب الأخوان أماكن للعبادة, بل مقرات لاجتماعاتهم السرية, وأوكارا للمؤامرات التي تستهدف صمود وعروبة سوريا, لكن لم غفل عنهم السيد الرئيس كل هذا الوقت, لم أهمل المرض حتى بات وباءا تطلب الشفاء منه, إجراء عملية جراحية قاسية, هذا هو السؤال الذي ظل يتردد في رأسه .

في الطريق صادفته امرأة كما لو كانت شبحا, منكوشة الشعر وتصيح قائلة:

ملعون ابوكو يا يهود, كلكو يهود, الله ياخدكو وما يخلي منكم حدا, ملعون أبو اليهود وين ما كانوا, ملعون أبو الكفار, الله لا يخلي منكم حدا, الله يخرب بيتكو متل ما خربتوا بيتنا, تتيتم اولادكو وتترمل نسوانكو, وينك يا إسرائيل, يخرب بيتك. الله اكبر الله اكبر .

هرب منها, كما هرب قبل قليل من عزرائيل . وما أن ألتقط أنفاسه حتى اخرج من جيبه زجاجة النبيذ, وشرب كل ما تبقى فيها, ثم فكر في الذهاب بعيدا إلى أفاميا, لعله يرتاح هناك قليلا .

_ هي _

بعد موت أمها, لم يبق لها احد في القاهرة سوى مديحة, التي بعد أن تزوجت, ورغم أنها لم تنقطع تماما, عن زيارتها والاتصال بها, إلا أن زياراتها مع مرور الوقت صارت متباعدة, بل وقليلة جدا, شعرت مساء هذا اليوم بانقباض شديد, لذا قامت هي بالاتصال بصديقتها, رد عليها زوجها, ثم كانت مديحة بعد لحظات معها على الخط .

_ والنبي ما تؤاخذيني يا ليا , أنت عارفة الشغل والبيت والعيال, حقك علي يا حبيبتي, عارفة انك وحدانية وواجب علي أبقى أزورك واتصل بيك .

_ لا مفيش مشكلة, بس متضايقة شوية, مش عارفة ليه .

_ اجيلك طيب دلوقت .

_ لا أبدا, ايه دة هو أنا باتصل فيك عشان تقولي لي اجي لك, أنا بيكفيني إني احكي معاك شوية .

_ طيب ايه رأيك تيجي عندي بكرة .

_ مينفعش يا مديحة, انت وجوزك وعيالك, وأنا أكون في وسطكو أزاي . تعرفي الواد عبد الحليم واحشني .

وقعت مديحة من الضحك :

_ هو أنت ح تفضلي تقولي عبد الحليم, اسمه عمرو يا ليا , عمرو ,,, زمن عبد الحليم خلاص راح ههه , احنا دلوقت في زمن عمرو .

عارفة بس أنا والله بحبه زي ما بحب عبد الحليم , وحافضل اشوفه عبد الحليم .

ثم تستأذن من صديقتها, بعد وعد بدوام الاتصال بينهما, ثم تقول لنفسها .

كان ممكن يكون ابننا في عمر ابن مديحة , يا حافز, شفت بقى انت اللي تأخرت علي, كان دلوقت عبد الحليم ابنك وابني في عمر عمرو أو حتى اكبر منه شوية, صمت الكلام في رأسها احتراما للدمعة التي سقطت من عينها .

_ هو _

حزيران 1982

يتابع الأخبار بعد أن جاء خبر عاجل يتحدث عن تجاوز القوات الإسرائيلية لحدودها الشمالية مع لبنان, شعر أو أنه أدرك بحسه الأمني وثقافته العسكرية بأن إسرائيل تنوي شن حرب شاملة هذه المرة, وليس مجرد اختراق حدودي, وهذا يعني بأن إقدام نظامه على تنظيف حماة من الطابور الخامس, قد اسقط في يد إسرائيل, وباتت تعلم بأنه لا حيلة لها في شن حرب على سوريا, ولأن إسرائيل دولة جبانة, فإنها تذهب للحلقة الأضعف, وهي الحلقة اللبنانية, لذا تريد أن تحقق على تلك الجبهة مكاسب ونصرا, لا يمكنها أن تحققه على الجبهة السورية .

_ هي _

سمعت الخبر الذي يقول بأن إسرائيل قد اجتاحت لبنان, وشنت عليها حربا برية واسعة, فسألت طبيبة زميلتها:

هي لبنان دي في سوريا ولا فين

ردت عليها قائلة: لا دي لبنان حاجة وسوريا حاجة تانية

كان رد زميلتها مطمئنا لها فقد شعرت بالقلق على من تحب لو أن الحرب كانت في بلده .

لكنها ورغم ما شعرت به من اطمئنان ألا أنها وجدت نفسها تتابع فصول ومن ثم تفاصيل الحرب, فقد هالها ما شاهدته من مجازر بحق المدنيين من أطفال ونساء في تل الزعتر, شعرت بانفعال شديد, وبرغبة عارمة في أن تفعل شيئا, وما أن سمعت عن الترتيب لمظاهرة تندد بالحرب الإسرائيلية على لبنان, حتى وجدت نفسها خارجة تردد مع المتظاهرين: الموت لإسرائيل .

_ هو _

فوجيء حين جاءه ساعي البريد برسالة من مصر, وتساءل :

من مصر, ماذا تركت ورائي هناك ؟ !

فض مغلف الرسالة, ضحك من أعماقه حين وجد مع الرسالة, وردة جافة, ورائحة عطر .

فض الورقة المطوية, فلفت انتباهه قبل أن يبدأ بقراءتها, وجود رسم لقلبين تحيط بهما الورود وحمامتان .

قرأ أولا توقيع المرسل, فلطم رأسه :

آه علية, ما زلت تذكرينني أيتها الحمقاء, ألن تكفّي عن ملاحقتي, غريب أمر بعض النساء, كيف لامرأة لا ينقصها الجمال في شيء أن تلاحقك وتصر على الزواج منك, رغما عنك !

فقط لو لم يكن اسمك علية, هو الاسم المؤنث من علي .

كم كان يود لو كان اسمه عليا, ومن لا يحب سيدنا علي ؟

لكنه بقدر ما كان يحب عليا, إلا أنه كان لا يطيق ما كان يعتبره سذاجة منه .

السياسة ليست صراعا فقهيا يا سيدي, فالناس حين احتدم الصراع على السلطة والحكم بينك وبين معاوية, قالوا بأن قلوبهم معك وسيوفهم مع معاوية, وفي آخر الأمر انتصر معاوية وأنت هزمت, بل قتلت, وتم تبديد نسلك كله, أتعرف لماذا ؟ !

لأنك تعاملت مع السياسة بالأخلاق وبمنطق العدالة السماوية, كما لو كانت فقها, لم يكن الصراع بينك وبين معاوية على الفقه أبدا .

فرغم أنك كنت أشبه بنبي, نقيا وطاهرا, ولم تر عينك فاحشة قط, إلا أن هذا يليق بوريث نبي في دعوته الدينية, ولا يليق بملك أو سلطان, من يكون حاكما عليه أن يكون داهية, كما كان معاوية وعمرو بن العاص, كما عليه أن يكون قاسيا وحتى عنيفا, كي يستقر حكمه, كما كان خالد, آه خالد هذا , أبو سليمان, كان القائد العسكري النموذج في نظري .

لذا وحيث ما كان يمكنني أن أغير أسمي فأكون عليا, كان يمكنني أن أطلق على نفسي اللقب الذي أحب فأكون أبا سليمان .

أما أنت يا علية, فأنت حالمة واهمة, بيضاء, تنتمين لزمن عبد الحليم حافظ وجمال عبد الناصر, لا تنتمين لزمن أنور السادات وعمرو دياب, لا تليقين برجل رسم لنفسه حياة لا حدود لطموحه فيها, كيف لك أن تكوني زوجة للقائد العسكري أو حتى لرئيس الجمهورية, وأنت على ما أنت عليه من هذه السذاجة ؟ !

كما أن الزواج بالنسبة لي لابد أن يشد من أزري, لابد أن يكون سندي أولا في صفوف الطائفة, ثم مفتاحا لطريقي إلى أعلى مراتب الحكم والسيادة, لابد لزوجتي أن تكون رفيقتي التي تعرف كيف تشد من أزري, وأن تقدر حكم ما أنا مقدم عليه من مغامرة لن تكون نتيجتها إلا واحدة من أثنين, أما الإعدام أو القصر الجمهوري .

_ هي _

_ 1 _

تمر الأيام, وحياتها تزداد رتابة وكآبة ووحدة, حتى صارت تحدث الجدران والكراسي, وفي أكثر من مرة, كانوا ينتظرونها حتى تقوم بالكشف عن الطفل المريض, وتمضي الوقت, وتكون قد نسيت أن هناك أحدا ينتظرها, يصيبها الوجوم كثيرا, ولم يتوقف الأمر عند حدود حالتها النفسية, بل أن جسدها اعتراه الوهن, ومنذ أن أدمنت تدخين السجائر وهي بالكاد تأكل شيئا, طوال اليوم, تشرب الشاي والقهوة وتدخن السجائر, وصارت تصيبها حالات من النسيان, تنسى أين وضعت المفاتيح, وتبحث طويلا عن علبة السجائر, وصلت حالتها إلى درجة جعلت صديقتها تقلق عليها, لكن ما باليد حيلة, فالسيدة مديحة لديها زوج وأولاد وأسرة, وعمل

والتزامات, وهي ليس بإمكانها أن توليها الاهتمام اللازم مع تقدم حالتها على طريق المرض النفسي والجسدي كثيرا . فقط لو أنها تزوجت, وكان لها الآن زوج وأولاد يعتنون بها !

لم تكن علياء تحتاج سوى"نكشة" حتى تنهار تماما, فعقلها الباطن يريد أن ينسى الواقع تماما, لأنه لا يمكنه أن يفهم أو يتقبل نسيان رجلها لها, إلى هذا الحد, حيث لن تتلق منه حتى رسالة واحدة منذ نحو أربع سنوات, وحين جاءت "النكشة", أصابها الوجوم الدائم, ودخلت في حالة من الذهول, أكثر مما كانت عليه يوم ماتت أمها .

حين رأتها مديحة على هذه الحالة, اتصلت بإخوتها, وطلبت منهم أن يزوروا أختهم ولو كل أسبوع مرة, فتعللوا بألف حجة وحجة, ففكرت أن تأخذها لهم حتى تعيد ما انقطع من ود بينها وبينهما, "وبالمرة" تغير جو في الفلاحين, حيث كانت تحبهم دائما, هناك عرفت بان أخويها قاموا بسلب حصتها من تركة أبيها وأمها, أصيبت بصدمة اكتئاب, ما كادت تصحو منها حتى أصابتها الحيرة حول ما يمكنها أن تفعله, حتى اقترحت عليها مديحة أن ترفع عليهما قضية . فتسألها : هو ينفع , والناس تقول علي ايه ؟

انت بس حاولي, خلي المحامي يتكلم وياهم, وشوفي يمكن يرجعوا لك حقك

وهكذا كان, ثم وحين اسودت الدنيا في عينيها, من كثرة المراجعات, ومما هي فيه من وحدة , خاصة بعد ان شعرت بطول غياب حافظ, لدرجة أنها بدأت تفقد الأمل, قالت مديحة, لو كان ليك راجل, كانوا اختشوا , يعني ايه, أتجوز, ترد بهدوء: اه وليه لأ

_ 2 _

رغم أن باب مكتبه يبقى مفتوحا طوال الوقت, الذي يكون فيه موجودا بالمكتب, ورغم أنه أيضا معتاد على دخول الزبائن إليه, من رجال ونساء, إلا أنه فوجيء حين دخلت عليه السيدة الأنيقة, والتي لأول وهلة أحس بأنه قد رآها من قبل, ومبعث المفاجأة كان أنه لم ير بيدها أية مخططات أو أوراق تشير إلى أنها قد جاءت لمكتب هندسي بهدف الاتفاق على أنشاء معماري ما .

ولم تنطل عليه محاولة السيدة, حين بدأت بالقول بأنها جاءت لاستشارته في أمر يخص شقتها, ثم وحين قرأت علامات الدهشة على وجهه, وحتى تثير فيه الارتياح, وحتى توقف سيل الأسئلة الذي انهال على رأسه, قالت:

أنا مديحة معلمة أدب عربي في مدرسة احمد عرابي الثانوية, صديقة جارتك الدكتورة علية, قبل كدة انتبهت لمكتبك, فقلت استغل وقتي, أستشيرك, إذا ممكن أغير قواطع الشقة عندي, لحد ما صاحبتي تخلص شغل .

رحب بها حين عرف أنها صديقة جارته التي ليس بينه وبينها سوى السلام العابر, وأبدى استعداده لخدمتها ومساعدتها في أي شيء تطلبه .

شرحت له وهي تشرب القهوة ما تريد بالضبط, فأجابها من حيث المبدأ, يمكن لها أن تغير القواطع, لكن الأمر يحتاج لدراسة على الطبيعة, حتى لا يتم الإخلال بتوازن البناء, كذلك دراسة المساحات جيدا, وأن ذلك بالضرورة يحتاج معاينة شخصية, ميدانية, من قبل المهندس الذي سيقوم بإعداد التصاميم والمخططات اللازمة .

اتفقت معه على أن تتصل به لاحقا ليحددا موعد زيارته لبيتها ودراسة الأمر حتى يبدأ بالتنفيذ .

بعد يومين فقط, كانت تدق بابه مجددا, وكأنها تعرفه منذ زمن طويل هذه المرة, لدرجة أنها بدأت تسأله أسئلة شخصية, أنت بقى لك كام سنة هنا بالعمارة, وحضرتك ساكن هنا بالعمارة وألا في عمارة قريبة وألا في مكان بعيد, وأخبار المدام ايه, مهندسة زي حضرتك, وألا بتشتغل حاجة تانية .

وما أن عرفت أنه أرمل حتى انشرحت أساريرها, ولم تتوقف عن سؤاله: البقية في حياة حضرتك يا باشمهندس , ومن زمان الكلام دة وألا من قريب .

ثم ألقت في وجهه السؤال _ القنبلة: طيب هو انتو مش صحاب ليه, قصدي حضرتك والدكتورة علية .

ولم تخرج إلا بعد أن اتفقت معه على موعد ثلاثي يخرجون فيه ثلاثتهم إلى كافي شوب, لتتعمق المعرفة والصداقة .

منذ اللحظة الأولى التي جلس فيها مع الصديقتين, تحركت مشاعره بشكل فياض نحو عليّة, وما هي إلا بضعة أيام قليلة حتى كان يسأل هو هذه المرة مديحة: هي صاحبتك متجوزتش ليه ؟

خبث مديحة ودهاؤها كان كبيرا, حين ردت عليه بالقول: ما قابلتش اللي يملا دماغها, وأضافت تصدق إنه وزير خليجي طلب ايدها, وإنه ضابط سوري كبير كان خاطبها, وبعد كدة فسخت الخطوبة, لما حست إنه نسي في يوم يتصل بيها .

هز رأسه وقال معلقا: هي بصراحة متميزة ومش عادية, جمال أيه وشباب ايه وعقل ايه, ودكتورة طبعا, ومش ناقصها أي حاجة, حتى تكون أميرة وألا سيدة مجتمع راقي .

أضافت مديحة: أنا كتير كنت باطلب منها تتنازل شوية, وأنها تشوف راجل مناسب, زي حضرتك كدة, وتتوكل على الله .

ما أن سمع كلمة زي حضرتك حتى تشجع وسألها: طيب لو أتقدمت لها توافق ؟

كان هذا ما تريده مديحة, فقالت: خلي الموضوع دة علي أنا, نروح عندها دلوقت, ناخدها ونخرج, وأنت قدامي اطلب ايدها وأنا أتصرف .

وكان أن فعل, فعقدت المفاجأة فم علية, وهمت للقول بأنها مرتبطة, لكن مديحة تدخلت فورا وقالت: بصراحة حضرتك متتعيبش يا باشمهندس, اديها يومين بس تفكر .

وكان هذان اليومان كافيين لتقنع مديحة, بشكل لم يحدث من قبل, صديقتها, على أن ترتبط به بالخطوبة, ثم ترى ما يحدث بعد ذلك, فإن شعرت بإحساس خاص نحوه واصلت, وإن شعرت باستحالة أن تقبله زوجا, تراجعت, فاقتنعت الدكتورة عليه, وهكذا صارت خطيبة المهندس جمال .

ثم كما سبق لها وأن أقنعتها بأن يكون الأمر غير نهائي, بأن تخطب فقط, أقنعتها بعد وقت بكتب الكتاب, ثم بالزواج, حين انهارت نفسيا بسبب سلب أخوتها لنصيبها من تركة أبيها وأمها, فقط اشترطت عليه شرطا أدهشه, واستغرب له لكنه وافق .

قالت له, لو صار نصيب وخلفنا, عايزة اسمي الواد عبد الحليم .

لكن أن تغفو في حضنه في أول ليلة وتقول له وهي نصف نائمة تصبح على خير يا حافظ, هذا ما أطار العقل من رأسه, ولم يهدأ إلا بعد أن عرف أن خطيبها السوري السابق كان اسمه حافظ, وأنها كانت تحبه فعلا .

_ 3 _

هكذا وجدت نفسها توافق على الزواج من الباشمهندس جمال, صاحب المكتب الهندسي, لكنها لم تقدر على أن تمارس معه حياة زوجية مكتملة, كان ينام بجوارها, وتدير ظهرها له, ومرت الأيام ثم الأسابيع, دون أن يدخل بها, وهو يحتمل, فكان يعرف ما مرت به في حياتها من مشاكل, ويتفهم ارتباطها العاطفي, إلى أن صحت في ليلة, على دفق ماء دافيء بين فخذيها .

جن جنونها, ومنذ تلك الليلة صارت تنام في غرفة أخرى وتقوم بإغلاق بابها بالمفتاح, وبعد أيام كان قد يئس منها, واقتنع بأنها _تقريبا, مجنونة, لذا وافق على طلبها بالطلاق, بعد أن تنازلت عن كل حقوقها المكتوبة في العقد, بل وأعادت له كل ما دفعه من مهر ومن مصاريف حفل الزفاف .

_ مديحة _

شعرت بالقلق من اتصال صديقتها المفاجيء, خاصة وأن صوتها كان يثير الاضطراب وهي تطلب منها أن تمر بعد دوامها لعندها لسبب ضروري جدا, لا يحتمل التأجيل, فهي بحاجة ماسة لها, وعلى مضض أمضت ساعات العمل, وما أن خرجت من المدرسة, حتى توجهت إليها في عيادتها مباشرة, وما أن دخلت عليها, حتى فاجأتها بالقول :

في إيه خضيتيني,

لم تجبها, بل قامت بإغلاق العيادة, وأخذتها من يدها وقالت لها: حنروح مشوار ضروري .

جابت بها الشوارع , حتى وصلتا الى عيادة خاصة بطبيبة نساء وتوليد

أذهلت المفاجأة مديحة, فقالت:

أنت جايباني هنا ليه

لم تشف غليلها بالرد حين قالت:

استني شوية وأنت تعرفي كل حاجة

دخلتا على الطبيبة

طلبت علية من الطبيبة أن تقوم بفحصها, فقد أنتابها القلق, حيث أنها منذ يومين تشعر بغثيان, وتدور بها الدنيا, ثم تتقيأ .

سألتها الطبيبة: أنت شاكة إنه عندك أعراض حمل ؟

أجابتها: مش عارفة عشان كدة أنا جيت لك

كاد أن يغمى على مديحة, لكنها لم تنبس ببنت شفة, لم تقل لها: حمل إيه, وأنت مش متجوزة .

فحصتها الطبيبة وقالت لها, إنها أولا تعاني من انخفاض نسبة الدم, بسبب سوء التغذية, ثم أنها ماخدة برد, وهذا كل ما في الأمر, أما الحمل: يا ستي أنت لسة صغيرة, ومصيرك تشبعي حمل وأولاد, بالسلامة .

ما أن خرجتا حتى أوقفتها مديحة قائلة: حكايتك ايه, أنت مجنونة, حمل ايه, هو حصل بينك وبين جمال دخلة, أجابتها بالقول: لا طبعا

قالت مديحة بانفعال: طيب حمل أيه ده اللي ممكن يحصل .

قالت علية: بس انا صحيت في ليلة, وكانت"ميته" بين رجلي .

ردت مديحة بما يشبه الصراخ: يا بنتي مش انت لسة بكر

ردت علية بهدوء: ايوة لسة عذراء, لكن ممكن يحصل حمل,,

قاطعتها بالقول : اسكتي بقى, حتحملي من الهواء .

قالت علية : طيب يا مديحة يا حبيبتي, من غير انفعال, انا مقلتش أولا انه عندي حمل, ورغم اني باعرف لكن جيت لدكتورة مختصة, ثانيا, فيه احتمال ولو انه قليل جدا, لو كان دخل حيوان منوي رحمي بالرغم من عدم الأيلاج, ممكن يكون في حمل, وصار حالات فيها حمل, لبنات لسة بكر, لأنه كان في جنس مش مكتمل, او بالبلدي كدة " تفريش " .

ثم لتضيف جوا من الفكاهة, قالت: انا كان نفسي يكون في عندي حمل بس من حافظ .

تضحك مديحة وتقول: اه طبعا عشان تجيبي عبد الحليم حافظ. ثم تتابع قائلة:

وماله جمال ؟ طيب ايه رأيك يكون المرة الجاية عندك حمل من أنور, خليه حل وسط بين حافظ وجمال .

تقول لها طيب من فضلك متتريقيش على خطيبي, وتتابع: تعرفي يا مديحة كان في اعتقاد عن الليبيين زمان ايام الاستعمار الايطالي ان الست بترقد

تسألها : يعني ايه بترقد

فتقول يعني انه ممكن تلد بعد سنتين او اكتر من وقت ما نامت مع جوزها

تقول : يا سلام, وعلى كدة يمكن انت رقدت من سي حافظ .

تشعر علية بشيء من الأنزعاج, فتقول لصديقتها:

طيب خلاص أنت ولا عمرك حتفهميني بس اعمل ايه مليش صاحبة غيرك .

ـ هي ـ

وما هي إلا أيام, وكانت قد تغيبت عن العمل والعيادة ثلاثة أيام متتالية, وحين ذهبت إليها وجدتها طريحة الفراش, لا تقوى على الوقوف, بعد أن قام الطبيب بالكشف عليها, وجد أنها ضعيفة جدا, وفي حالة انهيار عصبي, والسبب أنها تنتحر ببطء حسب وصفه, فهي لا تأكل, وفي حالة اكتئاب شديد, استدعى دخولها المستشفى, لكن حالتها لم تتحسن, صارت تكلم نفسها, وحين يسخر منها احدهم تقوم بشتمه وضربه, صارت عصبية جدا, إلى أن جاء يوم وكانت في حالة وجوم, أغلقت عليها باب العيادة, فيما الأمهات بالخارج ينتظرن, وكان هناك طفل يتوجع, فأخذ بالبكاء, انزعجت جدا, فتحت الباب, وصرخت في الأم قائلة: متسكتي ابنك ولا أمشي .

ردت الأم قائلة: حاضر يا دكتورة, بس الواد تعبان أوي, من فضلك شوفي ماله

صرخت بأعلى صوتها: وأنا مالي ومالك ومال أم ابنك, هو أنا كنت أعرفك, ولا من ميتين أهلك, امشي بقى

وقامت بطردها, ثم قالت لكل من في الصالة: وانتو كمان أمشوا, مش عايزة أشوف حد, امشوا, يلا برة , كله برة ...

خرجت جميع الأمهات, وحين كان يسألهن احد, هو في ايه, ايه صوت الصراخ دة, كانوا يقولون: الدكتورة تجننت, دكتورة علية تجننت .

سارعت واحدة ممن كن يشعرن بالغيرة منها, منذ أول يوم تم تعينها فيه بمستشفى الأطفال, إلى الاتصال بمستشفى الأمراض العقلية .

_ هو _

صدر قرار حل سرايا الدفاع عام 1984, ودمجها في الجيش العربي السوري, تحت مسمى الفرقة الرابعة والحرس الجمهوري, لذا فقد خيّر هو بين أن يبقى كضابط في صفوف الجيش, أو أن يعيش خارج البلاد, فأختار الخارج, خاصة وأنه لم يعد يضمن حتى حياته, وهو معروف بأنه قد ارتكب عمليات قتل بحق أفراد عديدين, كما انه تعود حياة البذخ والتشبيح, وفي الجيش هناك انضباط, والدلال الذي كانت عليه أجهزة الأمن لا يتمتع به الجيش أصلا, ولأن لديه ثروة كبيرة, كان قد حصل عليها من استخدامه لنفوذه طوال نحو ثلاثة عشر عاما, وهل هناك أجمل من باريس وأفضل من فرنسا, حتى يقيم فيها, لا أحد في سوريا ينسى بأن فرنسا كانت تحتل سوريا منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى وتحديدا منذ عام 1920, حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1944, عقدان ونصف تقريبا, تركا بعضا من الثقافة الفرنسية في البلاد, وهو شخصيا يعرف إلى حد ما اللغة الفرنسية, ثم في فرنسا سيكون مع معظم زملائه وأصدقائه الذي خدم معهم في نفس الجهاز الأمني, بل ولو احتاج شيئا, سيلجأ إلى معلمه وسيده . وما هي ألا بضعة أسابيع, وكان قد بدأ في استثمار أمواله التي جلبها معه, في العاصمة الفرنسية, بدأ أولا بمطعم شرقي, وظف فيه الكثير من العرب المغاربة, ثم كافيه فملهى, إلى أن ساقته الصدفة للريف الفرنسي, حيث استهوته كروم العنب, وتملكته بعد ذلك فكرة صنع النبيذ الفرنسي الفاخر .

_ هي _

_ 1 _

رغم أن المهندس جمال لم يكن يعني لها الشيء الكثير, إلا أن أقامته معها طوال شهر تقريبا, أدخل بعض الأنس إلى حياتها, كانا يتناولان طعام الغداء معا, ويعدان العشاء سويا, وكانت حتى حين صارت تنام في غرفة وحدها, تحس بأنفاسه في البيت, بعد أن تطلقت منه عادت الوحدة تقتحم حياتها بشكل أكثر وحشية من ذي قبل .

تذكرت قول أمها: ظل راجل ولا ظل حيط .

ترد كما لو كانت تسمع أمها لتوها: لا يا ماما, مش عايزة لا الحيط ولا ظلها .

جاءتها كعادتها مديحة دون ترتيب, وطلبت منها رقم تلفون الوزير الخليجي, لم تعرف السبب, ولم تترك لها مديحة كعادتها أيضا أي فرصة للتساؤل أو التردد أو الرفض .

بحثت عن الرقم في دفتر أرقام الهاتف في درج مكتبها, وحين وجدته, ناولته إلى صديقتها, التي سارعت على الفور للاتصال بالرجل .

سألت السكرتيرة عن معالي الوزير, فطلبت منها الانتظار, بعد أن أخذت منها اسمها, لحظات وكان معاليه على الطرف الآخر من الاتصال .

_ أهلا دكتورة علية, اشلونك وكيف الحال, ايش ذكرك فيني, ما تدرين والله قدر سعادتي انك تتصلي,,

قاطعته مديحة, قائلة: لا تواخذني معالي الوزير, أنا مديحة صاحبتها للدكتورة علية, اخدت رقمك منها, واتصلت بيك من عندها, وهي اهي قدامي, وبصراحة أنا حكيت لسكرتيرة حضرتك اسم الدكتورة علية, لأني عارفة غلاوتها عند حضرتك, وانك مجرد تسمع اسمها حتهتم بالمكالمة, لكن وضحكت, لو كنت قلت لها مديحة, يمكن مكنتش حتهتم أو حتى يمكن مكنتش تفتكر اسمي .

رد قائلا: ولو أنت الخير والبركة أستاذة مديحة, لكن وايش بيها الدكتورة, عسى ما في شر ؟

لا أبدا هي كويسة, بس مرت بمشاكل كدة, وأنا هلكت وأنا اقنع فيها إنها تغير جو, وإنها تيجي عندك تشتغل سنة وألا تنين, تكوّن نفسها, وتعيش حياتها بقى .

رد قائلا: وأنا مستعد لكل طلباتها ايش ما كانت وبأي وقت, ثم استدرك قائلا: لكن هي ايش بيها ما حابة تحكي معي ؟

ردت مديحة: لا أبدا, بس انا كنت حابة اتشرف بيك واحكي مع حضرتك, يعني ولو ما فيها تقلة دم على حضرتك, ممكن انا كمان اجي مع الدكتورة علية .

أهلا وسهلا , طبعا وليش لا

يعني ممكن تعمل لي إعارة؟

احكي لك مع وزير التربية والتعليم, لكن هذا أكيد يحتاج لأول العام الدراسي, لو حبت دكتورة علية تسناك, تيجون سوا, تيجي هي أولا وأنت تلحقي بيها, ما عندي مانع .

ناولتها سماعة الهاتف, أخذتها دون حماس .

وصمتت , فقط كان الوزير يمطرها بالكلام المعسول, الذي يقترب من الغزل .

تصدق هي مديحة فاجأتني, لكن برضة كان واجب علي اتصل بحضرتك, احنا برضة كنا زملا وكان بينا عيش وملح .

يعلق ضاحكا بشكل سمج: هاهاها عيش وملح وسكر, وان شاء الله يكون في عسل بعد .

اتفقا على أن ترسل له صورة جواز سفرها وشهادتها وكل ما لديها من أوراق بما في ذلك الخبرة العملية . وما هي إلا بضعة أيام وكانت الفيزا على جواز سفرها.

أخذتها وقامت بالحجز, وطارت في اليوم الموعود إلى حيث زميل الدراسة الذي صار وزيرا .

_ 2 _

كان في استقبالها شخصيا بسيارة فارهة مع مرافقين, ومن ثم أخذها إلى فندق فاخر, وبعد أن ادخل عامل الفندق أمتعتها الى الجناح المحجوز لها, عرض عليها أن يتناولان العشاء معا, فاعتذرت قائلة بأنها متعبة, وتريد أن تنام, على أن يلتقيا غدا .

بعد ثلاثة أيام من إقامتها في الفندق, سألها إن كانت تفضل أن تبقى في الفندق, أم تريد أن تنتقل إلى شقة خاصة, فسألته عن العمل, أجابها بأنه قد رتب أوراقها, وما عليها إلا أن تقول متى تريد أن تبدأ الدوام, حتى يرسل لها من يقلّها, ويحضرها إلى حيث مكتبه, فقد رتب لها عقد عمل بمكتب الوزير شخصيا, حتى تكون قريبة منه, وحتى يضمن لها أعلى مرتب ممكن .

قالت بأنها تفضل إذا أن تستأجر شقة خاصة تكون قريبة من مكان العمل, فوافقها الرأي وقال لها بأن لا تشغل بالها بأي شيء, فكل شيء يمكن ترتيبه كما تريد تماما, دون أدنى مشكلة, وهناك دائما من يقومون بكل شيء من أجلها .

فكرت طويلا بهذا العمل وتلك الوظيفة, هي الطبيبة الماهرة, تعمل كإدارية حتى لو في مكتب وزير, بماذا سيفيدها هذا, أجابت على تساؤلها بالقول, بأن الأمر على أي حال مؤقت, كلها سنة وألا اتنين, وأقوم بإنهاء العمل وأعود لبلدي وعيادتي وأطفالي

الفصل الرابع

(1984_ 1993)

_ هي _

_ 1 _

أقام لها حفل تعارف في الوزارة, قام خلاله بتعريفها على كل العاملين الذين أدركوا منذ أول يوم أهمية المرأة بالنسبة للرجل, وقام على شرفها, بمنح جميع العاملين يوم عمل أضافي, وفي تقديمه لها أشاد بكفاءتها العملية, وبقوة شخصيتها ورزانتها, وقال إن انضمامها للوزارة أنما هو مكسب كبير له ولوزارته, يأمل أن يدفع بالوزارة إلى الأمام كثيرا . وإضافة إلى تكليفها بمهام متابعة كل الأقسام داخل الوزارة, كلفها أيضا بمهمة متابعة مديريات الصحة في كل محافظات الدولة .

شعرت ذلك اليوم بأنها باتت امرأة من كوكب آخر, امرأة مسئولة, وعلى قدر كبير من الأهمية, ولم ينته الاحتفال, إلا بعد أن أخذت الصور التذكارية, لها مع معالي الوزير وكل أركان الوزارة, وفي اليوم التالي كان خبر الاحتفال منشورا على الصحف, ومذاعا كخبر محلي مهم في الإذاعة والتلفزيون .

عاشت أيامها الأولى في الدولة الخليجية كما لو كانت في حلم جميل, فاق كل تصوراتها وأحلامها, شعرت حقا بأنها كما لو كانت أميرة, كما لو كانت وزيرة, أو حتى حرم وزير أو مسئول, وصارت تستغرب من هذا الماجد, الذي كان ثقيلا على قلبها أيام الدراسة الجامعية, وكانت تظن أنه فقط جاء من أجل المتعة في أم الدنيا, فهو يحضر للجامعة راكبا واحدة من أفخم السيارات التي لا يركبها وزير في مصر, وتسمع عنه قصصا, تبدو لها كما لو كانت من قصص ألف ليلة وليلة, كانوا يقولون بأنه يقيم كل ليلة خميس حفلة في شقته بجاردن سيتي, يقدم فيها كل ما يطيب من الطعام, ويدعو لها أصدقاء من الجنسين, وأحيانا تكون هناك راقصات ومطربون مشهورون, وكانوا يقولون بأن ما يقيمه من حفلات في شقته, إنما هي الحفلات المحترمة, لكن ما يصرفه في الملاهي الليلة في شارع الهرم, ربما يعادل ما يصرفه كل طلاب دفعة كلية الطب من زملاء وزميلات .

كيف صار هذا الماجد, الذي كانت لا تهتم به, وحين تذكره أمامها مديحة تقول: بل قولي الماجن, إلى شخص آخر, تراه اليوم مسئولا حقيقيا, ناضجا, رغم أن الفارق بين تلك الصورة التي كانت تراه عليها وهذه التي تراه عليها الآن, لا يزيد كثيرا عن العشر سنوات, وهو إن كان في أيام الجامعة مراهقا, فهو الآن ما زال شابا, لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا بعامين أو ثلاثة .

صارت تشعر بالامتنان له, وبكثير من الاحترام, لذا فكرت في كيف ترد له الجميل, بالتأكيد, رد الجميل يكون في أن تتفانى في العمل, رغم أنه عمل إداري, لذا فقد قررت أن ترتقي بأوضاع الأقسام والمديريات, من خلال خطة عمل تطلق كل طاقات العاملين, واقترحت عليه أن يعلن عن برنامج حوافز للمبدعين من العاملين في كل حقول عمل الوزارة, كذلك قامت بإعداد برنامج زيارات ومتابعات ميدانية لكل مديريات الصحة بالمحافظات, حتى صار الشيخ ماجد, نجم الأعلام من كثرة ما تكتب عنه الصحف وتتناقل اسمه الأخبار المحلية .

بعد احتفاء الوزارة بالدكتورة علية, اتصل بها مساء ذلك اليوم, وسألها عن رأيها بالحفل, عجزت عن الوصف, وشكرته جدا, لكنه قال لها, بأنه يفكر في أن يحتفل هو بها, بشكل خاص, سألته كيف, فرد قائلا: مفاجأة, وأضاف حضّري لي حالك نسهر ليلة الخميس معا .

وفي الموعد المحدد, جاء إلى حيث تسكن وانتظرها بسيارته أمام العمارة التي تسكن بها, وكان وحده, ثم أخذها ودار بها داخل المدينة, حيث تعرفت على كل معالمها الخاصة, حيث رأت كيف تتجاور الأصالة والحداثة معا, وكيف تظهر "النعمة" على أصحابها . ثم أخذها إلى مطعم حيث تناولا العشاء معا, وسألها إن كانت تحب أن تسهر في ناد ليلي, أو في مشاهدة فيلم سينمائي, قالت بأنها, تفضل البقاء قليلا من الوقت في المطعم, ثم أن تعود لتنام, فقد أخذت جرعة كبيرة هذا المساء من التعرف على مدينته حيث ولد وعاش .

بعد العشاء, أخرج من جيبه هدية كانت عبارة عن عقد من الألماس الثمين, قام بوضعه على عنقها, في اللحظة التي شعرت فيها بحرارة أنفاسه تلفح عنقها .

قالت له بأن هذا كرم كبير منه وأن هذا شيئا كثيرا عليها, ثم سألته ببراءة: طيب أنا أعمل لك ايه, أرد جمايلك دي ازاي. ببساطة قال لها: تعرفي تعمل كشري, نفسي في طبق كشري مصري .

هكذا تحولت علياء إلى شخصية مرموقة ومهمة, بل ومعروفة, أينما ذهبت ترافقها هالة وحضور, لذا كان لزاما عليها أن تهتم أكثر بكل أنواع وأشكال القبعات الفاخرة .

_ 2 _

اتصلت بها مديحة لتطمئن عليها, فقالت لها بأن كل شيء على خير ما يرام, وأنها تعمل مديرة لمكتب الوزير ماجد, وأن الناس هنا كرماء جدا معها, وضعها ماجد في مكانة ما كانت تتوقعها, ثم أكدت لها بأن إجراءات إعارتها ستكون جاهزة مع أول العام الدراسي, وأنه كان قد اتصل أمامها بوزير التعليم عندهم.

ما أن وضعت سماعة الهاتف,حتى كانت دمعة تفلت من عينها, لم تنسها مديحة يوما, وكانت دائما بمثابة أختها التي لم تلدها لها أمها, بل كانت أفضل بكثير من أخويها, اللذين كان يفترض فيهما أن يكونا سندها, وحاميي عرضها وشرفها, لكنهما بدلا من ذلك أوصلاها إلى مستشفى الأمراض العقلية بطمعهما وجشعهما, أما مديحة فكانت دائما إلى جانبها في السراء والضراء, تضحي بوقتها وتترك زوجها وابنها, وتهب لنجدتها .

لولاها ما كانت قد خرجت من المستشفى, فهي من تابعت ملفها لدى إدارة المستشفى, وأقنعتها بأن ما مرت به إنما كان حالة من الاكتئاب, عالجوه بالمهدئات, دون أن تضطر للإدمان عليها, وهي التي حاولت أكثر من مرة أن تخرجها من وحدتها وأن ترتب لها زواجا يليق بها, إن كان بجمال أو بماجد .

شعرت بشوق لصديقتها في تلك اللحظة , وقالت لنفسها, أنا الآن أعرف لم وافقت على المجيء إلى هنا, فلا ماجد كان يهمني, وأنا اعرف بأنني لن أوافق أبدا على الزواج منه, ولا النقود كانت تعنيني, فلست بحاجة إلى الكثير منها, جئت لأضمن فرصة مديحة بالإعارة التي تحلم بها, وسأبقى هنا حتى اضمن لها هذا الأمر .

_ 3 _

وضع يديه أمامه على الطاولة التي يجلسان عليها متقابلين, هكذا كانت تحرص دائما على الجلوس معه, واقترب بوجهه من وجهها, ونظر إلى عينيها وسألها بشكل مباغت:

هو انت ليش ما تزوجت ؟

ردت بالقول وهي تنظر إلى البعيد, هاربة من نظرته: نصيب

لم يسمح لها بالهرب من سؤاله, فألحقه بسؤال أخطر:

ولو تقدمت لك وطلبت ايدك الحين, ايش تقولين ؟

تراجعت بجسدها قليلا وبدت عليها الجدية وقالت: اسمع معاليك, انت راجل محترم جدا, وألف بل مليون امرأة تتمناك, لكن أنا مش وحدة من دول, قصدي مينفعش أغشك, أنت احترمتني واهتميت بي وأكرمتني آخر كرم, مقدرش اتجوزك وأنا متعلقة بواحد تاني, مينفعش أكون نايمة معاك, وأقول اسمه, أو أتخيله فيك .

اندهش مما تقول, وبدا كمن لا يصدق, فقال: مين هاذا يا علية, معقول في حدا بيحب بهذا الشكل, هذا حب مراهقات _لا تواخذيني_ وانت اليوم تعديت الثلاثين .

قالت: هو مين مش دة المهم, المهم أنا أحلامي ايه وأخلاقي ايه .

قال: لكنك تزوجت من فترة بسيطة .

قالت : صحيح, ومقدرتش أنام معاه, مقدرتش اخدعه, زي ما أنا مقدرش أخدعك أنت كمان .

ثم انتقلت من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم, فسألته:

انت عايز تتجوز ليه, مش أنت متجوز

رد بكل بساطة: متزوج يا ستي وعندي أربع أولاد , ولدين وبنتين, متزوج بنت عمي الشيخ, عشان الحسب والنسب والنسل بعد . أنا بصراحة ما بفكر أتزوج اي وحدة, أنت وبس, لسببين: الأول إني كنت معجب فيك من أيام الجامعة وما كنت اقدر ارجع بيك بلدي, حتى لو أنت كنت وافقت على زواجنا, والثاني, حتى أتباهى فيك باللقاءات الرسمية, إحنا معظمنا صرنا هيك بالخليج, نتزوج وحدة من أجل النسل والحسب والنسب, غالبا بنت العم, ووحدة عشان البرستيج الاجتماعي, لأنه بنات عمنا مو خرج ترافقنا بسهراتنا وسفراتنا , وضحك .

تفاجأت جدا مما قال وردت: يعني انتو هنا بتعددوا الزوجات ؟

قال دون تردد: طبعا , مو حلال ؟

جاءها مرافق الوزير, الذي يقوم عادة بترتيب الإجراءات الإدارية والشخصية لمعاليه, وطلب منها جواز سفرها على عجل, استغربت وتوجست من الأمر, خشيت أن يكون قد نوى على أن يرتب أمرا غير قانوني, أن يقوم بترتيب عقد زواج خاص بهما, أو حتى ورقة مسيار, كما كان قد عرض عليها, وحتى تقطع الشك باليقين سألت المرافق: طيب أنت عايزه ليه ؟

رد قائلا: ما أدري, الشيخ يريده .

قالت: بس جوازي مش معايا, ده هو بالبيت .

قال لها: بأنه أمره بأن يحضره بأي شكل, وإذا كان الأمر هكذا, تابع يسألها: أعطيني مفاتيح البيت أو تعالي معي حتى نحضره .

ما كان يمكنها أن تقاوم أكثر من هذا أو أن ترفض, فخرجت مع الرجل وأعطته جواز سفرها .

بعد أقل من ساعة عاد إليها ومعه جواز سفرها وعليه سمة الدخول إلى تونس .

تعرفت من خلال مرافقتها للوزير ماجد, على الكثير من رجال الدولة, وعرفت الكثير من أسرار سكان المجتمع المخملي, وكان الجميع ينظرون إلى هذه المرأة الجميلة والسيدة الناضجة الراقية, ويتساءلون عن طبيعة العلاقة الخاصة التي تربطها بالشيخ ماجد .

هو كان يتباهى بهذه المرأة التي هي مديرة مكتبه, وهي على هذا القدر من الجمال والأنوثة والعلم, وكان في السهرات الخاصة, يحرص على مرافقتها له, وليس على مرافقة أم عياله, وكان أيضا يعرف ما يعتمل في صدور زملائه وأصدقائه من غيرة نحوه, على هذه المرأة المبهرة, فكان يتعمد أن يجلسها دائما إلى جواره, ويقنعها بذلك حتى لا يقوم أي واحد من الشيوخ بمحاولة التقرب منها, ثم بين الفينة والأخرى, يهمس في أذنها بأي شيء عابر, فقط من أجل أن يوحي لهم, بأن علاقة خاصة ما تربطها به .

هذه المرة, تسافر معه إلى بلد آخر, بلد الماء والخضرة والوجه الحسن, وهي طالما حلمت بتونس, وكثيرا ما تمنت لو أنها تزورها في أيام قرطاج .

ولم يدر بخلدها بأن السفر مع الشيخ إلى خارج البلاد مختلف عن مشاركته بالاجتماعات الرسمية وحتى السهرات الخاصة داخل البلاد .

كان اللقاء الوزاري العربي مقتضبا في جلسته الأولى, وكان على الوزراء أن يوافقوا على جملة من القرارات المعدة لهم سابقا, من نمط تسهيل تنقل المرضى بين المستشفيات العربية, وتبادل الطاقات البشرية والمعدات الطبية والخبرات, بسهولة بين الأشقاء العرب, قرارات كانت هي شخصيا قد شاركت في صياغتها وإعدادها.

وما أن حل المساء حتى أخذها في جولة, جابت خلالها شوارع وأحياء العاصمة القديمة, حيث تذكرت أحياء القاهرة من الموسكي والعتبة حين مرت بنهج جامع الزيتونة, وما أن انتهيا من تلك الجولة, حتى كانت تقول له بعفوية بالغة: نفسي أروح جربه !

غالي والطلب رخيص رد عليها بالقول . ومنذ صباح اليوم التالي, كان يسافر وإياها إلى الجزيرة التونسية السياحية الساحرة .

_ 6 _

كان يومها الوحيد في جربه ساحرا, لم تكن تتصور أن ترى أناسا هكذا يعيشون على السياحة, يشبهون الغجر في كل شيء, كما دهشت حين عرفت أن هناك يهودا توانسة يعيشون هنا دون أي تمييز, بل إنهم يتمسكون بحربة على أنها موطنهم الذي ليس لهم غيره موطنا . جزيرة صغيرة محاطة بالبحر من كل جانب, أستأجر يختا وتوغل بها في عرض البحر, حيث كانت ترى الأسماك تسبح في الماء الزرقاء, كما لو كانت تغني, ثم جابا الأسواق معا, لترى أنواعا من القبعات المشغولة يدويا فتشتري منها مجموعة متعددة الألوان والأشكال, ثم حين حلّ المساء, تناولا العشاء مما لذ وطاب من أشهى أنواع السمك . ثم سارا في الشوارع يتفرجون على الناس وهي تغني وترقص وتعزف الموسيقى كما لو كانت في مهرجان شعبي .

ثم أخذها إلى ملهى ليلي, حيث كانت الموسيقى صاخبة, وحيث تعددت الفقرات التي تغني فيها فتيات الليل ويرقصن شبه عاريات, كانت صامتة, ولا تشعر بأي ارتياح, لكنه هو هنا لا أحد يعرفه, ويريد الرجل أن يقضي وقتا ممتعا, لذا لم تحتج واحتملت, فيما كان هو يشرب بشراهة, ويدخن بشكل متواصل, وما أن تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل, حتى كان لا يكاد يسيطر على نفسه, لذا أشارت للمرافق, فقام بمساعدة سيده على الخروج من الملهى والدخول إلى السيارة التي أقلتهم إلى النزل .

حين عادا إلى النزل بعد أن اقتربت الساعة من الثالثة صباحا, فوجئت بأنه قد أستأجر شقة فندقية, وليس غرفتين منفصلتين, سقط قلبها من مكانه, لكنها حافظت على رباطة جأشها, أدخله المرافق إلى غرفته, وخرج, وقامت هي بمساعدته على تغيير ثيابه, شعرت به كما لو كان طفلا مريضا, ممن يعودونها في عيادتها بالقاهرة, لكنه وحيث كان بالملابس الداخلية, فوجئت به يقوم باحتضانها, وبتحسس صدرها, وهو يقول لها, بحبك يا علية, مجنون فيك, ابغيك, يلا نامي معي, ثم يحضنها بقوة, ويقوم بتقبيلها, تمصلت منه بصعوبة, وقالت له: يا حبيبي وأنا كمان بحبك, بس أنت البس هدومك ونام دلوقت, والصبح يحلها ربنا .

في اليوم التالي كانا يعودان إلى الخليج مجددا, وكان من الطبيعي أن لا يذهب لا هو ولا هي إلى العمل في اليوم التالي, لذا استغلتها فرصة, لتذهب دون تردد إلى مكتب مصر للطيران, وتحجز في أقرب رحلة, ومن ثم تترك له رسالة مع المرافق تشكره جدا على حسن الضيافة وعلى ما قدمه لها من كرم, لكنها تعتذر في الوقت نفسه عن عدم قدرتها على الاستمرار في العمل معه, ومن ثم تعود إلى القاهرة .

_ هو _

لا دمشق بشرقيتها وتراثها وتاريخها المبهر, التي سلبت عقله وهو في مقتبل الشاب, ولا بيروت بصخبها ونسائها وملاهيها المبهرة, تضاهي باريس بكل زهوها وجمالها وألقها, البشر هنا يعجّون بمدينة النور من كل حدب وصوب, وهو هنا يبدو مثل ملوك الشرق محاطا بالمرافقين "البودي جاردز" وبالنساء. بدأ منذ أيامه الأولى يجرب كل أنواع النساء, كما لو كان يتناول المتنوع من الفاكهة, الأوروبية الشقراء, ذات الجلد الناعم, تنزلق بين يديه مثل قطعة الزبدة, والأفريقية السمراء, تبدو مثل الشيكولاتة تحرق جلده حين يلتصق بها, الأسيوية التي تبدو في حضنه كما لو كانت طفلة صغيرة, ترتعش منذ أول لحظة يلمس صدرها, ثم تموء كقطة حين يبدأ في الدخول بها, كان ينتشي إلى أبعد الحدود وهن ينطق بالحروف والكلمات غير المفهومة, صدق من قال بأن لغة الحب إنما هي لغة عالمية, أما لغة الأجساد, فهي لغة الحواس كلها .

لقد دخل باريس من أوسع باب, فهو لم يكن كأي عربي مهاجر, وفي الحقيقة فإن المال بات كل شيء في هذا العالم الصاخب, الذي تداخلت فيه القوميات والأعراق, خاصة في هذه البلاد التي تولي الحرية الشخصية كل اهتمامها, لقد صار "البزنس" هو قومية البشر قبل أن يقفل القرن العشرين دورته بأكثر من عقد من السنين, انهدم جدار برلين الذي كان يفصل الشرق عن الغرب, فدخل الشرق بسحره, ودخل الغرب بواقعيته, وصارت الحياة أكثر صخبا وحيوية من ذي قبل, هو كان قد زار أكثر من بلد أجنبي بما في ذلك بلادا أوروبية من قبل, لكنه كان يذهب في مهمات عمل رسمية, وكان يتصرف بكل الحذر الواجب, أما الآن, فهو صار وريث شهريار مفلوتا من عقاله, بدأ ينهم من الخمر والنساء كهمجي, ثم مع مرور الوقت, بات مزاجه رائقا, فلا يقدم على التمتع بلذة دون اختيار دقيق, كان في الفترة الأولى مثل جائع, في الجنس خاصة, يلتهم كل ما يقع بين يديه, وحين شبع, صار يختار من الطعام أشهاه, ومن النساء أجملهن وأكثرهن إمتاعا, ثم أكثرهن غرابة وإثارة .

_ هي _

سنوات طويلة مرت, والدكتور علية ترفض العرسان, حتى استغرب لحالها كل من عرفها, حيث كيف يمكن لامرأة فائقة الجمال وفي نفس الوقت لها مكانة اجتماعية محترمة وتعمل كطبيبة ناجحة, وهي على درجة من الثراء, أن لا تختار من يعجبها من الرجال, حتى ولو لفترة ما, أي إن لم يعجبها تقوم بخلعه, لكنهم مع مرور الوقت اعتادوا هذا الأمر لدرجة بات معها أن يحدث العكس أمرا مستهجنا, أي أنه لو قال أحد بأن الدكتورة عليّه قد قررت أن تتزوج لأستغرب الناس .

الدكتورة علية تتزوج بعد كل هذا العمر, ولم ؟ ومن من ؟ من يليق بها, بالتأكيد لن يكون شابا يصغرها سنا, ولن يكون فقيرا وإلا لقالوا إنما هو طامع في مالها, ولن يكون عجوزا حتى لا يقال بأنها صامت وأفطرت على بصلة, ولن يكون أكثر منها ثراء حتى لا يقال بأنه اشتراها, ولن يكون لا أقل منها مستوى علمي ولا أكثر, والبعض من الناس قليلي الذمة والضمير, اللللي ما بخافوا الله, صاروا يزيدون على هذا بالقول, حتى لو وجدت زوجا مناسبا, وحتى لو بدأ أجراءات الزواج, سيعلم زوج الغفلة في يوم ما, حتى لو بعد ليلة الدخلة, بأنها كانت مخطوبة, ويسأل, أين خطيبها ولم لم يتزوجها, ويكثر السين والجيم, وأكيد سيعرف أيضا بأنها قد أصيبت بالجنون, وأنها مكثت في مستشفى المجانين أكثر من سنة, حين ذلك من المؤكد بأنه لو كان قد تزوجها وأنجب منها أولادا وبناتا, سيطلقها, وهي تعرف هذا جيدا, باختصار صار إيجاد زوج أو عريس مناسب لها, أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش, أو دربا من دروب المستحيل .

_ هو _

_ 1 _

خبرته في العمل الأمني خلال سبعينيات القرن الماضي, وظّفها في تصدير بعض من إنتاج الخمر التي يقوم بها, إلى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا, خاصة إلى دول الخليج, حيث يصل سعر الزجاجة الواحدة لأكثر من 250 دولارا, وكلما تقدمت المنطقة في التزمت الديني, كلما صار التهريب طريقا للثراء, وهكذا فإن خبرته الأمنية من جهة ومن جهة ثانية علاقاته بأمراء وشيوخ من أكثر من بلد خليجي, فتحت له أسواقا يحلم بها من يعلمون في صناعة الخمر منذ عقود. تلك العلاقات التي أقامها مستغلا عدة عوامل, العامل الأول كونه خبير أمني, قام بتقديم خدمات أمنية لأكثر من طرف, وهذا جعله على علاقة وثيقة مع عدد من رجالات الأمن في الدول العربية, مما يسهل عليه تصدير بضاعته المهربة إلى بلادهم مستغلا قدرتهم على أن يدفعوا رجال الجمارك وحتى رجال الأمن في بلادهم إلى أن يغضوا النظر عما يخصه, خاصة أن بضاعته بالأساس تصل إليهم والى رجالهم , ثم ليس من ورائها أي ضرر أمني أو سياسي يمكنه أن يؤثر سلبا على أنظمتهم الحاكمة . والعامل الثاني, هو أنه لا يمتلك فقط مزارع العنب

ومعامل صنع الخمور فقط, بل له في العاصمة وفي أكثر من مدينة رئيسية في فرنسا, مطاعم وملاه, يرتادها الشيوخ والأمراء, خاصة حين يعلمون أن مالكها عربي, وحين يرون أن معظم العاملين من العرب خاصة المغاربة الذين يتحدثون العربية, وهؤلاء يجيئون ولا يتقنون الفرنسية, كذلك هم مغرمون بالفتيات المغاربيات, وجل النادلات في مطاعمه وملاهيه منهن, ومع الوقت صار عماله مدربين على حاسة الشم الأمنية التي كان قد دربهم عليها, فما أن يرتاد أحد مطاعمه أو ملاهيه رجل مهم منهم, حتى يصله الخبر بسرعة فائقة, فيمد شباكه, ويحرص على أن تتكرر زيارة الرجل المهم إلى أن يتعرف عليه شخصيا . بعد ذلك يرتب له زيارة لمزارع العنب, وتحدث بينهما سهرات خاصة .

وهكذا صار للشيوخ والرجال المهمين أسرار خاصة لديه, مما فتح له الطريق السرية والملتوية للعودة إلى الشرق الأوسط, وحتى إلى سوريا بلده التي اضطر لمغادرتها والعيش بعيدا عنها, منذ العام 1984 .

_ 2 _

كان منذ صغره مولعا بشعر عمرو بن كلثوم, بل بشخصية الرجل, الذي هو أصلا أبن أخت الزير سالم وكليب وائل بن ربيعة, الشاعر الفارس العظيم, الذي قال شعرا:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

ولا تبقي خمور الأندرينا

لذلك فقد سمى خمره "خمرة الأندرين", مستعيدا ذكرى تلك المدينة التي تقع في الشمال السوري, والتي تشتهر بكرومها وطيب خمرها الذي كان تجار شبه الجزيرة العربية يجلبونه منها .

_ هي _

_ 1 _

كيف مرت كل تلك السنين عليها, وهي ما زالت تحتفظ في قلبها بذكرى ذلك الرجل الشاب المفعم بالنشاط والطموح, الشاب الذي كانت ترى فيه جمال عبد الناصر, مرت السنين فزادتها

نضجا وجمالا, تبدو كأميرة انجليزية, أو كليدي من العصور الأوروبية الوسطى, خاصة حين تضع تلك القبعة على رأسها, فتبدو مثل طاووس, يملأه الجمال زهوا وحضورا, كانت كلما مرت في طريق تثير فيه زوبعة, وحين تذهب إلى مكان عام تصير فيه محور اهتمام جميع من فيه . ألف رجل ورجل تقدم لخطبتها وهي صبية, ومنذ أن تخرجت من الجامعة, لكنها ظلت أكثر من خمس سنين وهي تقول بأنها مخطوبة لرجل ليس مثله رجل على وجه هذه الدنيا .

كانت كلما اشتاقت له, أغلقت عليها باب غرفتها, رغم أنها تعيش وحدها في شقة واسعة, وأشعلت الشموع, وصنعت القهوة المغلية كما يحبها, وأحضرت له علبة السجائر الروثمان, ثم جلست على الطاولة ووضعت صورته مقابلها, وأخذت تحدثه عن كل ما يخطر ببالها, ثم تستمع إليه بشغف, ماذا سنسمي أولادنا يا حبيبي: صلاح الدين, جمال, وسعد, ويوسف .

أربعة يا حبيبي تريد أن أنجب لك أربعة أولاد

يرد قائلا: نعم

تقول : ومش عايز ولا بنت

يرد : إذا اجت بنت تسمينها أنت .

حينها تضع رأسها في حضنه, وتغفو .

لا يغادر عالمها حتى حين تنام , تحلم به, أنت حافظي, أنت أبي وأمي وأخي وكل عالمي .

يضحك قائلا: ولو تركتك .

ترد دون أن تفكر للحظة: كنت أموت, اوعك عمرك في يوم تسيبني .

بعد دقيقة يقول: طيب لو مت .

تغلق فمه وتقول: الشر برة وبعيد, والله كنت أموت أنا كمان, وأنا أعيش ليه من غيرك

لأنها صارت تقضي الكثير من الوقت في البيت فقد, صار التلفزيون رفيقها, تشاهد الأفلام وتستمع للأغنيات الرومانسية, ما زالت تحب عبد الحليم حافظ, وتتذكر فيلم ابي فوق الشجرة, حيث كانت تندمج مع شخصية ميرفت أمين الفتاة المراهقة, أكثر من نادية لطفي, السيدة الناضجة, ما زالت ميرفت أمين تؤدي الدور ذاته, أو ما يشبهه بعد نحو عشرين سنة ؟ معقول هذا, تابعت باهتمام مشاهدة فيلم زوجة رجل مهم, (1988), واستغربت بأن يطلق فقط على رجل الأمن لقب مهم, مع أنه يفترض في أن يكون الفنان أو الكاتب مثلا أهم منه, مع ذلك فقد

تخيلت بأنها ستكون هكذا بعد وقت, انقبض قلبها حين تذكرت نهاية زواج ميرفت أمين من أحمد زكي في ذلك الفيلم, لكنها سرعان ما تبدد من خيالها التوجس, حين قالت بسرها, كانت ميرفت أمين طالبة ثانوية عامة, يعني "فافي", أنا دلوقت بقيت دكتورة, كمان هي زوجوها أهلها ليه بطريقة تقليدية, أنا اخترت حافز بإرادتي, وقلبي وعقلي اختاروه, وكمان بقالي سنين بعرفه وماشيه معاه, يعني مش خبط لزق كدة . لكن آه لو انها انجبت الأبن الذي كان يريده, وكانت هي تريده, لاكنت احتملت غيابه مع أبنه, لم لا ينجب المحبان, مجرد ان يقع بينهما الحب, ولم خلقنا هكذا بشرط الأتصال, كي يكون لنا أنجاب الأولاد .. بدأت تدور اسئلة غريبة في رأسها, لا تعرف كيف يحدث الأمر ولا من اين تأتي إليها تلك الأسئلة, الوحدة التي هي ان تعيش بلا حبيب, تصيب أعقل البشر بالجنون .

_ 3 _

هي من أطلقت عليه لقب الأسد, فقد كان اسمه حافظ وكان من مواليد آخر يوليو, أي من برج الأسد, فكانت تقول عنه حافظ برج الأسد, ومع مرور الوقت سقطت كلمة برج وصار حافظ الأسد, وحين سمعت لأول مرة أنه حدث انقلاب في سوريا وصار الفريق العسكري حافظ الأسد الذي كان قبل ذلك وزير دفاع الجيش العربي السوري, رئيسا للجمهورية العربية السورية, أنخلع قلبها من مكانه, فتخيلت أن حبيبها صار رئيس دولة, وأنها هي سرعان ما ستكون السيدة الأولى, حرم الرئيس, حرم الرئيس الأسد !

_ 4 _

كانت حين تسبقه إلى المقهى على كورنيش النيل, ويأتي ترافقه المهابة, يبدو لها مثل نجم هبط من السماء, وكانت تستغرب من شعورها وهي معه, وكأنها ترافق بطلا, صحيح أنه لم يكن بعد ضابطا ولكنه كان طالبا في الكلية العسكرية, ولم يكن يخرج معها بزيه العسكري, لكن هيأته ومهابته تقول وكأنه خلق ليكون ضابطا, ليس هذا وحسب, بل خلق ليكون قائدا .

أسد يا حبيبي, تناديه فيرد عليها قائلا:

عقرب يا حبيبتي

ولم تدرك بعد مضي السنوات الطويلة, بأن العقرب لا يتوافق مع الأسد

فهو أناني, مستبد سريع الغضب, لكنه كان كريما وعاطفيا جدا معها, أما هي فقد أحبت في حياتها رجلا واحدا, كان فارس أحلامها منذ أدركتها المراهقة, وما كان بمقدورها أن تحب رجلا آخر مهما طال الزمان, هكذا هي العقرب تتشبث بحبيبها وتحافظ عليه بكل ما أوتيت به

من قوة, ولأنها أدركت بعد مرور السنين بأن غيابه لابد أن يكون له سبب, على الأغلب هو سبب قاهر, لا يقدر هو على تجاوزه, فقد قررت أن تسترجع حبيبها, مهما كلفها الأمر, آه منها مهمة صعبة, فكيف لامرأة شرقية أن تسترجع حبيبها, وأي حبيب, إنه رجل مهم, أتفعل كما فعلت ميرفت أمين مع أحمد زكي, أم كما فعلت جيهان السادات, لابد أن يكون الآن قد صار قائدا عسكريا, ربما كان وزيرا للجيش أو حتى رئيس دولة, فماذا عليها أن تفعل, لابد لها من أن تكون بقوة جيهان لا بضعف ميرفت أمين, حتى تكون جديرة به .

_ 5 _

رتابة حياتها تشعرها بالملل, فكل يوم يشبه الذي قبله, والانتظار يجعل من مرور الوقت ثقيلا, من المستشفى إلى العيادة إلى البيت, تكاد تذهب وتعود وهي مغمضة العينين, مع ذلك تحب العودة إلى البيت, وتحب أيام العطل والأعياد والأجازات, فهي تسمح لها بالنوم طويلا, حيث صارت الأحلام تحط عليها كما حب المطر في بلاد الغرب, تعود إلى البيت مسرعة, لعله يكون قد سبقها, فتجد المفاجأة في انتظارها, تعرفه جيدا, فهو دائما يحب المفاجآت, قلما كان يخبرها مسبقا بأمر ما, كان دائما, يحضر فجأة, ولا يجلس, بل يقول هيا بنا, إلك عندي مفاجأة, ثم يأخذها من يدها ويذهب بها إلى مكان ما, تذكرت حين أخذها مرة إلى رمسيس ومن هناك إلى "المجري" وفي الطريق عرفت بأنه يأخذها إلى الإسكندرية, حتى يتناولا السمك الذي يحبه في مطعم قدورة, ثم يعودان أدراجهما, وكأن مشوار الإسكندرية الذي يقوم الناس عادة بالتحضر له أياما, ما هو إلا كمثل الذهاب إلى سينما ريفولي .

_ 6 _

تتأمل صورته أمامها, بالساعات, تدقق في كل تفاصيل وجهه, تفعل هذا كل يوم, ربما كانت تخشى أن تنسى ملامحه مع مرور وقت الغياب, تمر بأصبعها على الصورة, تتحسس أنفه وذقنه ثم شفتيه, تشعر برغبة فيه, فتقرب الصورة من وجهها, وتقوم بتقبيله.

وفي يوم من الأيام, تناولت ورقة بيضاء وقلما ثم حاولت أن ترسم صورته, وبعد لحظة, قامت بإدارة ظهرها لصورته التي على الجدار, وفضلت أن ترسمه من مخيلتها, ربما لترى إن كانت الذاكرة تحتفظ له بنفس الملامح التي في الصورة, لكنها في الوقت ذاته لم تعلم, بأن لديها موهبة أو رغبة في الرسم .

بعد أن انتهت أعجبتها الفكرة, خاصة حين رأت بأنها قد رسمت شيئا جميلا, ثم كان أن قرأت يوما أعلانا يقول بإقامة معرض للفن التشكيلي في أتيليه القاهرة, احتفظت بالموعد, وفي اليوم المحدد, كانت تذهب إلى هناك .

دخلت الأتيلييه, وكانت قاعة المعرض على الشمال, ومقابله كانت هناك كافتيريا, جابت المعرض تنظر إلى اللوحات بشغف واهتمام, وما أن انتهت حتى ذهبت إلى ركن منزو, وجلست على كرسي, تتأمل الحاضرين الذين كان جلّهم من الكتاب والفنانين.

أعجبها المكان, فهنا أناس يعدّون من النخبة التي يمكن أن تخرجها من وحدتها التي زادت حدتها, مع مرور الوقت ومع انشغال مديحه ببيتها, وبعد موت أمها, وبعد أن صار أخوتها يحلون ضيوفا ثقيلين عليها, لا يحضرون إلا ليطلبون منها المال .

بجوارها كانت ثلة من المثقفين يتحاورون بشكل حاد, فكونهم مختلفون حول أمر ما, يبدو واضحا جدا, كانت تسمع كلمات العراق, صدام حسين, الكويت, تخرج من أفواههم بكثرة, استمعت بإنصات لعلها, تعرف شيئا من حقيقة الموقف تجاه احتلال العراق للكويت, وكل ما كان يهمها هو موقف مصر, سمعت احدهم يقول: أنظر يا صديقي حتى سوريا المعادية للرجعية العربية, وبلد الصمود والتصدي ها هي تشارك في حفر الباطن, ويتابع قائلا: أنا استغرب من مثقف يفترض فيه أن يكون ديمقراطيا أن يقف إلى جانب احتلال أجنبي لبلد عضو في الأمم المتحدة . يقاطعه مثقف آخر بالقول : متنساش يا صديقي إن العراق بلد عربي والكويت بلد عربي, ايش دخل أم أمريكا تحشر أنفها في النص, طيب ومش إسرائيل محتلة فلسطين بقالها أكثر من عشرين سنة, ومش دة كيل بمكيالين, بعدين مهي أمريكا اكتر دولة في العالم احتلت دول تانية, بقت حريصة على حرية الدول والشعوب .

لم تقترب من رواد الأتيلييه كثيرا, لكنها كانت تجلس عادة وحدها, تستمع إلى نقاشات تكون حادة أحيانا,إلى أن كان يوم, سمعت فيه كاتبا يقول بأنه ينوي السفر إلى سوريا, لم تتمالك نفسها حينها, إلا وهي تجر كرسيها إلى حيث كانت المجموعة, وتتدخل موجهة إليه الكلام, قائلة: أنا حاجي معاك .

_ الراوي _

كان جو الشام صيفيا معتدلا ولطيفا للغاية, كنت أينما تمشيت تستنشق هواء نقيا, خاصة وقت المساء, كنت أنوي أن أرتب لصديقي برنامجا حافلا من التجوال في معالم دمشق القديمة, كنت سآخذه إلى الحميدية, نجوب شوارعها الداخلية الضيقة وصولا إلى المسجد الأموي, ومن هناك نعرّج على النوفرة, وفي المساء إلى جبل قاسيون, ليرى كل دمشق من عل, لنستذكر معا أمجاد بني أمية, وبطولات يوسف العظمة . كنت أرتب أن نذهب إلى سوق البزورية, إلى الميدان والشاغور, قبل أن نذهب بعد يومين للشمال, إلى حمص وحلب ومن ثم للاذقية وطرطوس, هو لم يأت ليصطاف, لكني كنت أفكر في أن آخذه إلى جزيرة أرواد, والى طرطوس وبالتحديد إلى حصين البحر, حيث مسقط رأس سعد الله ونوس والى حيث يمكننا أن نذهب لنزور حيدر حيدر .

كان صوت كاظم الساهر يصدح بأغنيات نزار قباني, في الحقيقة أن كل سوريا, عرفت كاظم الساهر وأحبته منذ العام الماضي, أي العام الذي شنت فيه قوات التحالف الثلاثيني الحرب على

العراق, وأنشئت خلالها قوات حفر الباطن بمشاركة سوريا الرسمية, لذا فقد عبّر الشعب السوري عن رفضه لمشاركة نظامه في حفر الباطن بإطلاق صوت كاظم الساهر يغني لشاعرهم الدمشقي العظيم نزار قباني في كل البلاد الشامية, في إشارة إلى أن الشعب كان يود أن تتلاحم الدولتان, سوريا والعراق ضد الغزو الأجنبي, تماما كما فعل كاظم مع قصائد نزار .

أني خيرتك فاختاري

ما بين الموت على صدري

أو بين دفاتر أشعاري .

أي خيار هذا بين الحب الرومانسي العذري وبين الحب الأيروسي يا صديقي, وضحكنا كلانا, فنحن نعرف نزار جيدا, وكنا نقول بأن من أحب بلقيس العراقية وهو السوري كل هذا الحب, ما كان بمقدوره أن يكون " دونجوانا" أو عابثا مع النساء, لكن النساء رأين فيه بطلهن الذي يعبّر عما هو مكنون في نفوسهن من الرغبة, ولا يقوين على البوح به, أما كاظم فقد كان ذكيا حين غنى له في ذلك الوقت, واسترجع من خلال زواج نزار السوري من بلقيس العراقية توق الشعبين العراقي والسوري للوحدة بينهما, رغم أنف البعث الذي أنشق على نفسه, وخان مبادئه, ورغم وصوله للحكم بشعار الوحدة العربية في البلدين الجارين الشقيقين, إلا انه لم يوحد بينهما, بل أنشأ حالة من العداء بينهما, وأسس في كلا البلدين للنظام الطائفي الذي سينشأ لاحقا في كلا البلدين !

_ هي _

في المطار دخلت ورفيقها في الرحلة إلى صالة المغادرين, وحين همّا بالذهاب لشباك جوازات السفر للحصول على ختم المغادرة, توجهت على غير ما توجه له رفيقها إلى قاعة شباك الأجانب

مدت يدها بجواز سفرها, ففوجيء الموظف وسألها

أنت مصرية روحي الشباك التاني

أجابته: لا أنا سورية

أزاي دة بسبورك مصري

صحيح لكني متزوجة من سوري

مش مهم عندي متجوزة مين, المهم بسبورك مصري

قبلت الأمر على مضض, وذهبت إلى حيث كان رفيقها, الذي بادرها بالسؤال

في مشكلة

أجابته: لا

وبداخلها قالت اوكي مش مشكلة هارجع بباسبور سوري .

_ الراوي _

_1_

في الطريق إلى مطار دمشق الدولي, اندفعت ذكريات أيام الجامعة, حين التقى الصديق بصديقه, فترافقا بالكفاح الثوري, وبالانحياز للجماهير الكادحة, وما كانت الدراسة إلا مناسبة ليطلق الشباب المندفع والحالم, كل طاقته من أجل أثبات وجوده, وشق طريق جديدة لحياة الناس, تتوزع فيها العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية بكل أشكالها, كان صديقه الذي غاب عنه نحو ثلاثة عشر عاما, بوصلته في التعرف على تفاصيل القاهرة الشعبية, المقابلة لحي الزمالك, حيث مقر الكلية, صديقه كان لافتا للانتباه من بين نحو عشرة ألاف طالب, وكان متطرفا في أفكاره وانحيازه, لدرجة تجعل الكثيرين يخافون من الاقتراب منه, وهو نفس السبب الذي دفعني لأن أقترب منه, فقد كنت أنا أتحلى بالجرأة والشجاعة التي تقدّر في شاب مثل هذا, جرأته ووضوحه, رغم أني لست متوافقا معه, لكن الأيام بعد ذلك قرّبت جدا بين أفكارنا, فكان أن أخذ بيدي لأعرف ما لم يكن بحسباني, وما لم أجيء من أجله من تحصيل علمي .

هل أنت واثق من أنك ستعرفه ؟

صدمني السؤال الذي وجهته لي زوجتي, وفكرت للحظة, ودون تفكير قمت بالرد عليها:

مستحيل أن لا اعرفه, صحيح أن ثلاثة عشر عاما ستغير من ملامح صديقي, كما غيرت من ملامحي, لكن قلبي سيدلني عليه .

ما أن وصلنا المطار, وانتظرنا قليلا, حتى طل علي صديقي ببشاشته, فتعانقنا, ومن ثم قدمت له زوجتي, وحين شرعت في تناول حقيبته, طلب مني أن انتظر قليلا, قائلا بأن لديه رفقة, علينا أن ننتظر قليلا حتى تخرج .

بعد قليل خرجت امرأة ناضجة, تضع قبعة من القش على رأسها وتبدو كما لو كانت أميرة تسير بخيلاء فتلفت انتباه كل من في المكان . دهشت بالطبع وظننت أنها زوجته, لولا أن فارق السن بينهما كان يبدو جليا وواضحا, ولم يطل الوقت حتى كنا جميعا نستقل الحافلة التي ستعود بنا إلى ميدان الحجاز, حيث سنقل من هناك تاكسيا إلى حيث أقيم في مخيم اليرموك .

تناولنا طعام الغداء, وارتحنا قليلا, وكان بيتي يطل على الشارع الرئيسي مباشرة, وكان بيتا مستقلا, أي أنه من طابق واحد, أرضي, وله سطح, طبعا كنت مستأجرا له, المهم كانت به غرفتا نوم, إضافة إلى صالون داخلي وفسحة نسميها بيت الدرج, وكان من الطبيعي أن أنفرد بصديقي في غرفة, فيما كانت زوجتي مع الضيفة الغامضة في الغرفة الثانية. لا ندري كيف مرّ الوقت, ونحن نسترجع ذكريات الجامعة, وما تخللها من انتماء حزبي, ومن مناقشات صاخبة, لكن قبل أن تغيب الشمس, أي قريبا من العصر طلب مني صديقي أن نذهب إلى مكتب بريد حتى يتصل بزوجته قي القاهرة, فيطمئنها بسلامة وصوله, وحيث لم يكن لدينا في ذلك الوقت"موبايلات" ولا حتى كانت تتوفر في دمشق الهواتف الأرضية, في المنازل إلا نادرا, فقد ذهبنا إلى مكتب البريد في الحجاز, ورافقتنا رفيقة صديقي الغامضة .

لم ننتظر كثيرا, حتى جاء الدور لصديقي, فذهب وحده إلى كابينة الهاتف, فيما بقيت أنا والسيدة وحدنا, كنت أشعر بأن كل جسدي يضطرب وأنا معها, امرأة بكل معنى الكلمة, سألتها عن رأيها بالشام, أبدت إعجابها بتحفظ, فهي تتحدث باقتضاب, ولم تبد الحماس لشيء, ظننت أن هذا هو أسلوب البرجوازيين والأرستقراطيين بالكلام, كل شيء عندهم محسوب, وهم متكلفون, وليسوا مندفعين مثلنا كما أنهم ليسوا عاطفيين مثلنا, المهم أنها سألتني سؤالا مباشرا واضحا وصريحا, وقالت:

هو القصر الجمهوري فين ؟

أشرت لها بأنه هناك, في حي المهاجرين

ثم سألتها بدوري إن كانت تريد شيئا من هناك

فقالت: أصل الجماعة اللي أنا جاية عشانهم موجودين في القصر الجمهوري .

سألتها إن كانت لديها أرقام هواتفهم, حيث يمكنها أن تتصل بهم, فنحن ما زلنا في مكتب البريد

أجابت بأنها ليست مستعجلة, وأنها لاحقا ستفعل, ثم أخبرتني بأنه ليس لديها أرقام الهواتف

قلت لها: الأمر بسيط جدا, ها هو مكتب الاستعلامات بالبريد, تعالي نسأله

فورا ذهبنا لموظف الاستعلامات, وسألناه عن أرقام القصر الجمهوري, وفي لحظة كان يمد يده لنا بورقة فيها عدة أرقام .

سألتها إن كانت تريد أن تحجز للمكالمة, فقالت, إنها تفضل أن تتصل لاحقا .

انتهى صديقي من مكالمته, فخرجنا, وركبنا تاكسي النقل العام إلى مخيم اليرموك .

وحيث أن مقر المؤسسة الإعلامية التي أعمل فيها, في المخيم, وإن كان في آخر شارع اليرموك, فيما أنا أسكن في شارع فلسطين, فقد عرضت عليهما أن نذهب للمكتب, حيث هناك هاتف, لتتصل السيدة "براحتها" فوافقا, فذهبنا .

دخلنا المكتب وكان الوقت مساء, أي تجاوز الساعة الثامنة, وهذا وقت عادة ما يكون قد غادر قبله, كل المحررين الصحفيين والموظفين المكتب, ويبقى فقط المناوب الصحفي مع أداري وبالطبع مع الحراسة .

ذهبنا مباشرة إلى مكتبي, وكانت به طاولتا مكتب وعدة كراس, تركت لها طاولة وأعطيتها الهاتف, فيما جلست لطاولة المكتب الثانية وصديقي نواصل الحديث, فنحن مشتاقان لبعضنا كثيرا, أدارت قرص الهاتف, وبعد لحظة كانت تقول :

أعطيني حافظ الأسد

ما أن سمعت الكلمة, حتى قفز قلبي من مكانه, وبلغ التوتر بي أعلى حد ممكن, نظرت إلى صديقي, فأشار لي بأنه لا يعرف شيئا.

سمعنا المكالمة التي استمرت للحظات, بدت لي دهرا من القلق, ثم خرجنا ثلاثتنا دون أن ينبس احدنا ببنت شفة, ومشينا سيرا على الأقدام من شارع اليرموك إلى شارع فلسطين, مرورا بشارع لوبية .

_ 2 _

لم يكن آخر النهار كما كان أوله, فقد ساد الصمت والتوتر والقلق, بين الصديقين, فيما دخلت الضيفة إلى حيث زوجة المضيف, بعد وقت توجهت إلى صديقي بالقول:

واضح أنهم أخذوا وأعطوا معها بالكلام, لإطالة وقت المكالمة بهدف تحديد مكان المتصل, وأنهم سرعان ما سيكونون قد نجحوا في ذلك, لذا فأني أتوقع أن يقوموا بمراجعة مؤسستنا, وحين يتم البحث في الأمر, إلى أن يصل الأمر لي فأني سأقول هذه هي من قامت بالاتصال .

وافقني صديقي, وعدنا لمواصلة الحديث لكن هذه المرة, دون مزاح أو ضحك, ونحن نتوقع أن يدق باب بيتنا في أية لحظة, ثم غلبنا النعاس فنمنا .

في الغرفة الثانية, كان أحمر الشفاه الفاتح على شفتيها, والبياض على خدودها وقبعة القش الأرستقراطية على رأسها, تظهرها كما لو كانت أميرة, أو امرأة راقية, جاءت إلينا من بلاد الغرب, لكن الماكياج الواضح, كان يظهرها كما لو كانت لوحة لفان جوخ, بقيت هكذا على هيئتها حتى حين جلست القرفصاء في الفراش .

حين طلبت منها مضيفتها أن تغسل وجهها بالماء, زادت دقات قلبها, وتذكرت كما يحدث معها دائما, ذلك اليوم المشئوم, حين كانت تتمشى وحدها على كورنيش النيل, وحين مرت بكوبري قصر النيل, مر من جنبها شاب وسيم جدا, وفي لحظة كان يعتلي حافة الجدار الحديدي للكوبري, ثم يلقي بنفسه في الماء, ارتعشت فرائصها, وظنت بأن ما رأته كان مشهدا سينمائيا,

لكنها بعد أن تحلق الناس حولها, وبعد أن علا الصراخ أيقنت بأن الشاب قد أقدم على الانتحار, بسبب فشله في الزواج من حبيبته .

رفضت بالطبع أن تغسل وجهها بالماء, وقامت فقط بمسح وجهها بمنديل .

_ 3 _

في الصباح الباكر, وقبل الساعة الثامنة, فاجأني صديقي بالصحو, وطلب مني أن نخرج على عجل, وحين سألته إلى أين, أجابني بأنهما سيذهبان إلى فندق ما, فخرجنا ثلاثتنا, وأصر صديقي على أن يأخذ أشياءه معه, وحين رفضت, وقلت له بأنه ضيفي, أجابني, حتى تقتنع السيدة, علينا أن نخرجها من كونها ضيفتك .

كان رئيس أمن الفندق شابا وسيما, وكان من الطبيعي أن يهتم برواد الفندق, لكن اهتمامه بالسيدة المصرية كان اهتماما خاصا, منذ أول لحظة, نظرا لما أقدمت عليه من تردد في تقديم جواز سفرها لموظف الاستقبال, ومما أبدته من اهتمام خاص به .

فهي ما أن رأت ملابسه الخاصة, التي أوحت لها بأنه رجل أمن, حتى ظنت أنه رجل مهم في الدولة, بل وحين قرأت كلمة "رئيس" على صدره, حتى ظنته رئيسها المنشود .

وحين انتصف الليل كانت تغادر غرفتها, إلى اللوبي, وتجلس في مكان ناء, ثم كانت تنادي على الرجل, وتطلب منه أن يجلس معها .

وهكذا أمضت وقتا معه, ولم تتردد في نهاية السهرة في أن تطلب منه أن يخرج معها في الصباح في رحلة سياحية في المدينة .

وهكذا كان أن توثقت علاقتها به, حتى عرضت عليه أن يذهبا إلى القدس, فوجيء بالطبع, لكنه أخبرها بأنه لا يمكنه أن يفعل من الشام, فسارعت إلى الفور وعرضت عليه أن يذهب معها للقدس من القاهرة .

اتفقت المرأة أخيرا مع الشاب على أن يرافقها للقاهرة, وهناك يتزوجان ثم يذهبان إلى القدس معا

توجس الشاب من المرأة كثيرا, لكنه وبحكم عمله تمر عليه الناس "اشكال ألوان", لذلك كان يسمع بهذه الأذن وينسى بتلك, وكانت التعليمات دائما, هي ان يقوموا على راحة النزلاء .

سألته بغتة قائلة:

هو أنت أسمك ايه

اجباها: ليث

ردت: يعني مش حافظ

رد ضاحكا: هو الليث أسد , بس مو حافظ ولا أسد

شعرت بإحباط , لكنها تداركت الأمر وقالت:

طيب ممكن اطلب منك خدمة

أجابها: أكيد, تفضلي, بشو بتأمريني حضرتك

أخرجت من جيبها صورة قديمة

وقالت: تقدر تعرف لي فين ألاقي صاحب الصورة دي

تأمل الصورة , وقال:

ياه هاي قديمة كتير, لمين هي حدا قرابتك شي

قالت: هو جوزي

استغرب الرجل, نظر إليها, مجنونة هذه المرأة وألا شو, من لحظة كانت بتعرض علي أنها تتجوزني, وهلا بتقول أنها مجوزة, قلب الصورة بيده ونظر إلى ظهرها, قرأ التاريخ وأسم الأستوديو

وقال: ممكن نوصل له, لو الموضوع بيهمك كتير .

قالت: بالطبع يهمني جدا, دة جوزي من عشرين سنة .

قال : اها ومن عشرين سنة ما شفتيه

قالت : لا أزاي انا بشوفه كتير, ما بغيب عن بالي لحظة, بعت لي جوابات , وكنا متفقين نتجوز بكايرو, وبعدين نروح سوريا بالبر, ونمر من العريش والقدس , أنا رحت العريش, اصل الريس السادات رفع علم مصر على العريش, هو انت معندكش فكرة والا أيه

باستغراب شديد, سألها:

القدس وليش طيب

اجابت: عشان القدس بين مصر وسوريا, وعشان عقدنا يبقى مقدس وأبدي, وعشان السادات وجيهان .

لم يفهم الرجل, لكنه آثر إنهاء الحديث والتفرغ لعمله, فسألها: فيك تعطيني المكتوب يا اللي كان بعتلك ياه .

أخرجت من جيبها مغلف الرسالة, فقرأ عنوان المرسل, وعرف أن عليه أن يذهب للساحل ويسأل عن صاحب الصورة في تلك الضيعة .

بعد أيام عاد موظف الفندق من الضيعة ليخبرها بأنه قد وصل إلى الرجل, لكن أهل الضيعة أخبروه بأنه هاجر منذ وقت إلى أوروبا, ولمزيد من التعاون, أعطوه رقم هاتف .

وكان يرافقة رجل أربعيني بشارب كث, تذكرت حين كان يقبلها فتهرب, وحين يسألها عن السبب تقول:

أصل شنبك بيشوكني

فجاءها في اليوم التالي حالقا شاربه, فلم تعرفه وقالت له, انت تشبه حبيبي, انت مين

ضحك وقال: أنا اخوه لحافظ

تأملها الرجل, ولم يعرفها بالطبع, لكنه قال لها بأنه أخ الرجل الذي تبحث عنه, وحين سألته :

طيب هو فين

أجابها بالقول:

في فرنسا

ردت على الفور ودون تردد: طيب أنا عايزة أروح له, فين ما يكون

أجابها قائلا: مو مشكلة, خلينا نتصل فيه ونخبره .

ما قصة هذه الشوارب التي تنتصب على وجوه كل الرجال السوريين, تساءلت, وقالت: اكيد انه كل الشعب السوري فلاحين, فهي لم تكن ترى هذا الشعر على الشفاه العليا الغليظة للرجال, التي تجعلهم حين يقومون بتقبيل النساء كما لو كانوا يهمون بأكلهم , الا في الفلاحين بمصر .

_ 4 _

لم تتمالك نفسها وهي تطلب الرقم الدولي, فيأتيها الصوت الذي بدا لها كما لو كان أكسير الحياة, بكت حين سمعته ولم تنطق, ألا بعد دقائق:

كدة برضة, تسيبني كل السنين دي

سمع صوتها على الهاتف, ولم يعرفها, وحين ظلت تذكره بها, تذكر أنه كان على علاقة ما غير مكتملة مع فتاة بالقاهرة.

دهش هو بالطبع, وقال: معقول, علية, انت لسة متذكراني

دة كلام برضة يا حافز, احبك كل الحب دة وانت ولا على بالك .

وحين أخبرته بأنها قد جاءت لتأخذه إلى القدس .

صمت قليلا ثم قال : طيب تعالي لي انت باريس لنشوف, شو نعمل وبعد هيك بنقرر.

تعاتب الحبيبان, ولم تقفل الخط, إلا وهي تخبره بأنها ستذهب فورا إلى مكتب الطيران لتحجز تذكرة وتسافر إليه .

بدأ يقلب الأمر ويتساءل عن قصة هذه المرأة التي كان قد عاش معها أياما رومانسية في شبابه, لم تتكرر لاحقا طوال عمره, وقال: ربما تكون مخابرات مصرية أرسلوها لنا, أو حتى موساد, في كل الأحوال قد تكون صيدا ثمينا, علي أن اتصل بالمعلم, واخبره وفي كل الأحوال لن أخسر شيئا, بل سأعيد ثقة المعلم بي, بعد أن تلاشت حين تفرغت للبزنس هنا, ومن يدري ربما فتحت لي هذه القصة أبوابا مغلقة هنا أو هناك .

_ هو _

_ 1 _

أخذها من المطار إلى فندق فاخر, وبعد أن أجرى اتصالاته مع "معلمه", عرف ما يتوجب عليه فعله, فقصة المرأة بذهابها إلى دمشق, واتصالها بالقصر الجمهوري, أمر مثير للريبة, فهي إن كانت على صلة مع جهاز المخابرات الإسرائيلية, وكان هناك طرف خيط يصل القصر الجمهوري السوري, بإسرائيل, فهذا يعني صيدا أمنيا ثمينا, يمكن استخدامه في ضرب نظام الرئيس حافظ الأسد في مقتل, أما إن كانت لها صلة بجهاز المخابرات المصرية, فهذا يعني بأن مصر حاولت أن تكون عرّابا لتسوية سياسية سورية/إسرائيلية, لكن السؤال المثير هنا, هو كيف تركتها أجهزة الأمن السورية, دون أن تعتقلها أو أن تحقق معها ؟

من قال بأن الأمر قد مر هكذا, لربما تكون قد التقت معهم بشكل سري, دون لفت انتباه رفيق السيدة في رحلتها من القاهرة إلى دمشق, أو حتى مضيفه, فهم قد عرفوا أنها قد وصلت الشام, وبعد ذلك يتوجب عليهم أن يجدوها, وأن يصلوا إليها .

قام بإيصالها إلى غرفتها, وتركها قليلا لتغير ثيابها, وانتظرها في "اللوبي", بعد نحو ربع ساعة كانت تهبط كأميرة, وفي تلك اللحظة كان قد أرسل من يدخل غرفتها, وينبش بكل مرفقاتها, وخاصة جواز سفرها الذي قام بتصوير كل صفحاته .

وهكذا بدأ الاستعلام عن السيدة, كان يفكر وهو يجلس قبالتها, يحدثها عما فعلته طوال كل تلك السنين, ويقول في نفسه: آه لو كانت وسيطة بين إسرائيل وحافظ الأسد, لكان أخوه قد أخذ بثأره

منه, ولكنت أنا قد حصلت على مكافأة كبيرة, حينها كانت الاتصالات السرية ستمتد بين باريس ودمشق, ولكان حبل المساومات قد امتد بطول المسافة, أما لو أنها كانت مجرد محاولة مصرية لسحب سوريا إلى مربع "كامب ديفيد" فأنه يمكنه أيضا أن يجعل من القصة بروبوجندا إعلامية .

أسبوع كامل وهو ينتظر أن يأتي إليه الخبر اليقين, وحين تيقن الجهاز, من أن السيدة ليس لها علاقة بأحد, بل أنها فعلت ما فعلته بدافع من حب قديم, أسطوري جعل منها أنسانا حالما إلى أقصى درجة, تعيش في الوهم والخيال, وحين وجدت نفسها على أعتاب السياسة دخلت بابها الواسع بسذاجة غير عادية .

استغرب جدا أن تكون قد أحبته هذه المرأة كل هذا الحب, الذي لم تحبه إياه أخته وربما أيضا ولا أمه, فقرر أن يكافئها بأن يتجول بها كل أوروبا, بل وإن كانت تريد أو توافق على الإقامة معه, فتكون واحدة من "حريمه" , وحين أخبرها بنيته, فرحت كما لو كانت طفلة صغيرة بجديلتين .

_ 2 _

بتحفز صياد ماهر, خبير في أصطياد فرائسه من النساء, أستقبلها في المساء معانقا, ثم قدم لها مجموعة من الهدايا, قعبة باريسية فاخرة, فاجأتها فقالت: هو انت لسة فاكر؟

يا سلام وهو أنا أنسى, مش هيك برضة حاطة قبعة على راسك ؟

ضحكت , ثم تناولت زجاجة العطر الباريسية, رشت منها قليلا على عنقها, وقالت: الله دي جميلة أوي .

ثم نظرت الى زجاجة النبيذ وتساءلت مستغربة : وايه دي

ضحك وقال: دي عشان نحتفل الليلة بيها سوا .

ثم قام ووقف وراء ظهرها ووضع يديه على عنقها, وشبك فيه عقدا من الألماس أخذها إلى عالم آخر .

ثم مسك يدها , وأحاطها بسوار ذهبي ثمين, ثم اخذ أصبعها, وأدخله في خاتم غال الثمن .

قالت: هو انت حتخطبني من تاني

ضحك قائلا: تاني وثالث والى ما لا نهاية, سيدتي , شبيك لبيك , أنا بين ايديك . حضنته, فقال لها كمن ما يزال يذكر ما كان بينهما قبل ربع قرن, مش كنت قلت لك عمرك ما حتكوني لحد

غيري, ولما قلت لي يا سلام, طيب وانت حتكون لحد غيري, قلت لك ايه ساعتها, قالت: قلت لي ولا انا. رد قائلا, شفت, فعلا لا انت تجوزت غيري ولا انا تجوزت غيرك ! هذا ما قاله على مسمعها, أما ما قاله في سره, فهو لا انت تجوزت ولا عرفت حد غيري, أما أنا فصحيح لم أتزوج من غيرك, لكني عرفت كل نساء الأرض !

_ الراوي _

"طبعا حافظ كان قد أسقط أسم علية من رأسه, ورغم أنه يمتلك ذاكرة قوية, وقوة ملاحظة, كما هم عادة رجال الأمن, إلا أنه استعان حين ظهرت في حياته فجأة, هكذا بعد كل هذه السنين, بما كان يكتبه من يوميات, كانت بمثابة تمرين له على كتابة التقارير الأمنية, التي أتقنها بعد ذلك" .

_ هو _

_ 1 _

رغم أنها صارت في سن السابعة والأربعين, إلا أنها ما زالت بكرا, عذراء, احتفظت بعذريتها لحبيبها, كانت بكامل لياقتها الرومانسية, ثم غرقت في وحدتها, ثم غابت عن الوعي, جاءت إليه لتفتح له مجددا روحها, قلبها وعقلها, وساقيها .

بدت له مثل زجاجة النبيذ المعتق, فقرر أن يقيم طقوسا خاصة لفض بكارتها, فأخذها إلى المزرعة, وأضاء الشموع, وملأ البانيو بالنبيذ, وغطس فيه .

_ 2 _

رأى فيها كتلة من الغرابة, امرأة من عصور قديمة, بل اعتقد بأنها, على الأغلب, امرأة غريبة الأطوار, لا يدري سر اهتمامه بها, ربما لأنها غامضة, أو حتى ساذجة, أو متوجسة, مسكونة بالخوف والشك وعدم اليمين تجاه كل البشر, ربما لأنها بداخلها إنسان محطم, استغرب من اهتمامه بها, واستبعد فكرة أن يكون قد تعاطف معها, رغم أن الرجل الذي عشقته كل هذا العشق كان هو . على الأغلب الفضول هو الذي دفعه للاهتمام بها, الفضول متعدد الجوانب, بها كأمارة غامضة, لم يعاشر مثلها من قبل, فهو عاشر نساء قرويات, كانت تفوح منهن روائح

الماعز, ليس فقط حين كان مراهقا في الضيعة, ولكن أيضا هنا في الريف الفرنسي, وعاشر غجريات, كن يقمن طقوسا من ألف ليلة وليلة حين يقضي الليل معهن, وعاشر بلهاوات, وأكثر من مرة كان يدفع نقودا كثيرة من أجل فض بكارة فتاة عذراء .

كانت بعضهن لا تعرف ماذا يعني جنس, وكانت بعضهن ترتعب من مجرد أن يبدأ في نزع ملابسها, فتضعه في خانة من يقوم باغتصابها, وكانت بعض النساء اللواتي يفضلهن على أي حال تغرس أظافرها في ظهره وتموء مثل القطة, وبعضهن كن مثل الكلبة, معجونة بالشبق, تملأ المحيط صراخا وغنجا وتملأ السماء بالتأوهات, لذا كان قبل أن يبدأ حفلته مع إحداهن, يقرر كمية الخمر التي سيقوم بتقديمها لها, ودرجة تركيزها, كذلك الكمية التي سيشربها هو, بل ويقيم الأجواء التي تناسب كل صنف من الحريم, هو في الحقيقة يعشق كل أنواع النساء, وبتوضيح أكثر يثيره التجديد والتنوع, فالرتابة في كل شيء مملة, وهو مقتله في الملل .

عاش مثل أمير شرقي, وما لم يحققه في بلده حققه هنا, كان يقيم إقطاعية بكل معنى الكلمة في بلاد النور, فلديه عائلات تعمل في مزرعته, ولديه مئات الشبان والفتيات يعملن في مطاعمه وملاهيه وكافيهاته, لديه مرافقون مفتولو العضلات, ولديه عشرات السيارات, ثم أمتلك مروحية .

سألته مرة عبر رسالة, هو انت الرئيس تبع سوريا

فطس من الضحك حين قرأ هذه الجملة ورد عليها مازحا : لا أنا أخوه **!**

_ 3 _

عرض عليها أن يأخذها في جولة أوروبية, فوافقت على الفور, وحين سألها, إلى أي بلد تفضل إن تذهب أولا, أجابت دون تردد وقالت:

أنا عايزة أروح موناكو والسويد .

ضحك قائلا: اها موناكو عشان شو ؟

قالت: كان نفسي لو كانت غريس كيلي لسة عايشة , كانت حابة اشوفها

ظن في البداية أنها مسكونة بثقافة المهاجرين العرب, الذين يتوجهون للدول الأسكندنافية من اجل الضمان الاجتماعي, لذا سألها مجدا: طيب وليش السويد, ليكون بدك تاخدي الملك للقدس **؟ !**

ردت بجديه: أنا بحب الملك جوستاف والملكة سيلفيا من زمان .

اتبع سؤاله الأول بسؤال ثان, هل هناك من مكان محدد أو من احد معين تودين أن تريه أو أن تلتقيه . أذهلته حين أجابت بسرعة وبكل بساطة ووضوح ودون تردد:

عايز اقابل الملك غوستاف والملكة سيلفيا !

ضحك من أعماقه, فتذكر كيف أنها ذهبت لدمشق واتصلت بالقصر الجمهوري تسأل عن الرئيس حافظ الأسد, فظن أنها تفعل هذا في كل مكان تذهب إليه, لذا سألها مازحا: طيب ما بدك تشوفي فرنسوا ميتيران بالأول . هزت رأسها, وقالت : مي دة , ممثل ؟

لم يجب, بل أصابه الوجوم للحظة, فقال: لا ولا حدا أنسي الموضوع, اوكي باخدك على السويد, وممكن تشوفي الملك والملكة, مش قصة يعني .

_ هي _

تلك الليلة اختلطت عليها الأحلام بالوقائع, وكانت في حقيقة الأمر, غير واعية تماما لما يحدث, فقد أقام لها ليلة من أجواء ألف ليلة وليلة, نساء ورجال يحفون بها, عشرات الراقصين, وصلات من كل ألوان الفنون في العالم, من السامبا البرازيلية الى التانجو, الى البالية, والرقص الشرقي, الى البون أودوري والغيشا اليابانية واليانغكو الصينية, الفلامنغو الغجري, وحتى الرقص الشعبي الروسي الذي يتميز بالقفز والوثب والدوران, والبورييه الفرنسي وبالطبع كانت الدبكة السورية والرقص الشرقي والمزمار البلدي المصري . ثم أخذها في رقص ثنائي بوصلة سالسا اتبعها برقصة الحب الرومبا, مما جعلها تغيب عن الوعي أكثر من شرب النبيذ وتحلق في عالم آخر .

في مساء اليوم التالي أخذها إلى مزارع العنب التي يمتلكها, حيث رأت مئات العاملين الآسيويين يقطفون عناقيد العنب الأحمر, تذكرت طفولتها في الفلاحين, ثم تجول بها على معامل التصنيع, أدهشها ما ترى, واستغربت كيف لرجل عسكري أن يصبح هكذا خبيرا في صناعة النبيذ, وفي تسويقه, وحين سألته عن السر الذي جعله يتحول بسرعة من عسكري إلى صانع خمر, قال لها بأنه ليس هناك من فارق كبير, فصانع النبيذ يذهب عقول الناس, أما العسكري فيذهب حياتهم .

ضحك واستدرك قائلا: تستغربين لأنك عرفتني في القاهرة ذلك الطالب في الكلية العسكرية, ولم تعرفي شيئا عن طفولتي وعن حياتي في سوريا, يا سيدتي أنا من ضيعة تقع على قمة جبل في الساحل السوري, حيث كروم العنب والمشمش والتفاح, وحيث أن أهلي وكل سكان تلك المنطقة ورثوا صناعة الخمر منذ أجيال, وأنا نفسي ما زلت أتذكر كيف كانت أمي وأبي يصنعون العرق والخمر في بيتنا, بعد أن يقطفوا عناقيد العنب, آه يا علياء أنت لا تعرفين بأن الأقليات السورية من علويين ودروز يتقنون صناعة العرق والنبيذ البيتي الذي يقومون ببيعه قبل حلول

رأس السنة بشهرين تقريبا, ويكاد يكون ذلك مصدر الرزق الوحيد للعديد من العائلات السورية .

_ هو _

_ 1 _

أخذها إلى مونتي كارلو, حيث شاهدت كيف يكون الثراء, في واحد من أهم المنتجعات السياحية في العالم, تجولا معا, حيث رأت رواق رالي مونتي كارلو, كذلك صالات بطولة التنس الأرضي, وحين انتصف النهار أخذها إلى كازينو حيث تناولا طعام الغداء, الذي احتوى كل ما خطر على بالها من أصناف الطعام الشرقي, إضافة إلى أنواع السمك البحري اللذيذ .

تمنت لو أن الأميرة غريس كيلي كانت ما تزال على قيد الحياة, ولأن أميرتها المحبوبة قد ماتت, لذا فأن مونتي كارلو, بل حتى موناكو كلها لم تعد تعني لها الكثير, لكنها رغم ذلك دهشت لما يتمتع به الغرب من ذكاء ومن اتساع الحيلة, هنا نظام دولة مختلف عما هو معمول به في كل فرنسا, تتمتع موناكو بنظام خاص, بل حتى بدستور وحكومة, ولها أمير, أي أنها إمارة داخل الدولة الفرنسية, والهدف من ذلك هو تشجيع السياحة العالمية, فبنظامها الخاص تستقطب موناكو أثرياء العالم, الذين يجيئون ليصرفوا الملايين فيها, على السياحة والقمار والنساء .

ايطاليا بالمقابل جعلت من الفاتيكان دولة داخل الدولة, ايطاليا كلها دولة علمانية, والفاتيكان, وهو ليس أكثر من حي داخل روما, له نظام كهنوتي خاص, فيه الرهبنة, في حين أن في روما مواخير وبيوت دعارة, وكل ما هو موجود في الغرب الليبرالي .

بخجل سألته عن امرأة عربية تقيم هنا, وحين رأت صورتها أول مرة, دهشت لوجود تشابه في الشكل بينهما, أسمها جابي لطيف . ضحك وقال: جابي صديقتي, هي مذيعة بإذاعة مونتي كارلو, لبنانية, تقيم في باريس, ثم ضحك لسذاجتها, وقال موضحا: الإذاعة أسمها مونتي كارلو, لكن استوديوهاتها في باريس . لا عليك, تابع قائلا, حين نعود سآخذك إليها .

بعد الغذاء أخذها في جولة, واشترى لها الكثير من الهدايا, لفت انتباهها, أنه قد اشترى لها قمصان نوم مثيرة, لكنها فضلت السكوت, فهو يظهر كرما بلا حدود معها, وليس من داع لأن تخلق مشكلة بلا سبب, بعد رحلة التسوق, أخذها في جولة بحرية في يخت مدهش, شعرت أنها فعلا أميرة أوروبية, أو أنها سيدة شرقية أولى, ترافق أميرا أو رئيسا .

في المساء, أخذها إلى حيث صالة للعب القمار, المرخص به في حدود موناكو فقط, حيث رأت بأم عينها رجالا عربا خليجيين, يقامرون بالملايين, فيما كانت قد رأت نساءهم في النهار يتسوقن ويشترين ملابس وأحذية وكل ما يبهرهن من حلي, بمئات الألوف .

بعد أيام, جاءه الرد بقبول استقباله وضيفته الشرقية بناء على الطلب الذي كان قد قدمه قبل يومين فقط, لمقابلة الملك والملكة السويديين, لم تصدق حين اخبرها بأنهما سيذهبان إلى السويد, وحين دخلت القصر الملكي دهشت من البساطة, حيث لا وجود لحالة الاستنفار الأمني الدائمة, كما هو معتاد في البلاد العربية, وحين دخل عليهما الملك والملكة, تقدما إليهما وسلما عليهما بكل بساطة, كما لو كانوا أصدقاء عاديين .

هي كانت تعرف كل ما يصل إليها من أخبار عن الثنائي الملكي العاشق, لذا فقد كان حديثها يتضمن تلك المعلومات بما أدهش الملك والملكة, وبما في ذلك أن الملكة سيلفيا تكبر الملك غوستاف بنحو عامين ونصف, وهذا أيضا شيء غريب عندنا, حيث يمكن أن تصادف في بلادنا العربية رجلا بلغ الثمانين من عمره, تزوج فتاة في السادسة عشرة من عمرها, ولكن من النادر جدا أن تجد امرأة تزوجت رجلا تكبره ولو بيوم واحد !

كان الحديث شيقا, لدرجة أن الثنائي الملكي مكث مع الثنائي الشرقي أكثر من نصف ساعة, وكان الملك والملكة في منتهى السعادة وظهرا كما لو كانا طفلين رغم أنهما كانا في الخمسين من عمرهما, وكان مثيرا لهما أن يعرفا بأن هناك امرأة عربية تحبهما كل هذا الحب وتقدرهما كل هذا التقدير, وذلك منذ أن أعلنا حبهما, وقبل أن يتوجا وحتى الآن, فهذا أمر أضفى سعادة بالغة عليهما .

أخذ الضيفان حقهما من الضيافة الملكية, ثم جاء مصور القصر, فأخذ لهم صورة جماعية, كانت بالنسبة لها كنزا حقيقيا, ثم بعد ذلك تمنى الثنائي الملكي للضيفين كل التوفيق, وعرض عليهما الملك أن يأتيا في أي وقت يرغبان فيه .

كانت تعرف بالطبع بأن ملك السويد لا يمتلك سلطة تخوله أن يمنحها الجنسية أو حق الإقامة, ولا أي شيء خارج أطار القانون, الذي هو الحاكم الفعلي في تلك البلاد, لذا ورغم أنها فكرت للحظة في أن الإقامة في مثل هذا البلد حتى لو مع الغربة, أفضل بكثير من العيش في بلدها مع الاغتراب .

خرجت وهي تشعر بأن الأرض تدور بها, فقررت أن لا تعود مع حافظ, بل أن تحجز بأول رحلة إلى القاهرة, وحين تصل بيتها, تقوم بنزع كل الصور المعلقة على جدران صالونها وغرفة نومها, وتضع فقط هذه الصورة .

القاهرة

2018 / 3 / 24